الأزهر

مختارات من تراث

صاحب الفضيلة الشيخ

محمد الخضر حسين

شيخ الأزهر الأسبق

الجزء الثانى

هدية مجلة الأزهر المجانية لعدد ربيع الاول ١٤٢٢هـ

http://albordj.blogspot.com

بسم الله الرحمن الرحيم

http://albordj.blogspot.com

العلماء والإصلاح

نود من صميم قلوبنا أن تكون نهضتنا المدنية راسخة البناء، رائعة الطلاء، محمودة العاقبة، ولا يرسخ بناؤها ويروع طلاؤها، وتحمد عاقبتها، إلا أن تكون موصولة بنظم الدين، مصبوغة بآدابه، والوسيلة إلى أن يجرى فيها روح من الدين يجعلها رشيدة فى وجهتها، بالغة غايتها، أن يزداد الذين درسوا علوم الشريعة عناية بالقيام على ما استحفظوا من هداية، فلا يذروا شيئاً يشعرون بأنه موكول إلى أمانتهم إلا أحسنوا أداءه.

ينظر أهل العلم فى حال الناس من جهة ما يتقربون به إلى الخالق، ويزنون أعمالهم ليميزوا البدعة من السنة، ويرشدوهم إلى أن يعملوا صالحاً، ومن الذى لا يدرك أن البدع تقف كقطع من الليل المظلم فتغطى جانباً من محاسن الشريعة الغراء، وهى بعد هذا ضلالات تهوى بأصحابها فى ندامة وخسران؟

ينظرون فى أحوال الناس من جهة ما يدور بينهم من المزاعم الباطلة والأحاديث المصنوعة، وينفون خبثها نفى النار لخبث الحديد، يفعلون هذا ليكون الناشىء المسلم نقى الفكر صافى البصيرة، لا يحمل فى نفسه إلا عقائد خالصة وحقائق ناصعة.

ينظرون فى أحوال الناس من جهة ما يجرى بينهم من المعاملات، فيصلحون ما كان فاسداً ويصلون ما كان متقطعاً ،

وما شاعت المعاملات التى نهى عنها الدين فى غير هوادة كالربا والميسر إلا حيث قلّ من يعظ الناس فى ارتكابها ويبسط القول فى شؤم عاقبتها.

ينظرون فى أحوال الناس من جهة ما يمسهم من السراء والضراء، ويسعون ما استطاعوا فى كشف الضر عنهم ولو بعرض حالهم على أولى الشأن، وإثارة دواعيهم إلى أن يعالجوا العسر حتى ينقلب بفضل تدبيرهم يسراً. يحدثنا الكاتبون فى تاريخ الأندلس أن العلماء المقيمين فى ضواحى قرطبة كانوا يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة ويطالعونه بأحوال بلدهم. وقال أحد علمائهم:

وأتعب إن لم أمنح الناس راحة

وغيرى إن لم يُتْعِبِ الناس يَتْعَب

ينظر أهل العلم بعين الاحتراس إلى كل من يدعو إلى مذهب باسم الدين، ويتخذون الوسائل إلى الاطلاع على حقيقة قصده، ومن أسباب وهن حبل الإسلام وتقطع أوصاله مذاهب يبتدعها ملاحدة يمكرون، أو جهال لا يفقهون، أفلم يكن المذهب البهائى يعمل لهدم قواعد الإسلام واستهواء أبنائه من خلف ستار، وقد أحس بعض أتباعه اليوم بقوة فصاروا يخطبون على منابر بعض النوادى ويجهرون بشىء من مزاعمه، وعرف بعض

خصوم الإسلام قصدهم فقاموا يشدون أزرهم ويرددون الثناء على مذهبهم.

نحن نعلم أن فى كل أمة فئة يفتحون صدورهم لقبول كل دعوة توافق أهواءهم، أو تأتيهم فى طلاء يلائم أذواقهم، ولكن نهوض العلماء بعزم وحكمة إن لم يسحق آراء زعماء هذه الفئة سحقا، فإنه يكشف عما فيها من سوء، فلا يسكن إليها إلا من هم إلى الحيوان الأعجم أقرب منهم إلى الإنسان.

يرقب أهل العلم كل حركة تقوم بها جماعة من الأمة، فينقدونها بالنظر الخالص، ويصدعون فيها بآرائهم مدعومة بالأدلة المقنعة، ولا تعد هذه المراقبة وهذا النقد خارجين عن خطة العالم الإسلامى، بل هما واجبان فى عنقه كواجب التعليم والإفتاء، وإذا قص علينا التاريخ أن فريقاً من أهل العلم قضوا حياتهم فى بحث المسائل العلمية البحتة، فقد قص علينا أن أمة من عظمائهم كانوا ينظرون فى الشئون العامة، ويمثلون السيرة التى تكسو صاحبها جلالة، وترفع له بين الخلائق ذكرا.

كان أهل العلم يوجهون هممهم إلى الوسائل التى تقى الأمة ممن يبغونها الأذى، فهذا أبوبكر بن العربى قاضى أشبيلية رأى ناحية من سور أشبيلية محتاجة إلى إصلاح ولم يكن فى الخزانة مال موفر يقوم بسدادها، ففرض على الناس جلود ضحاياهم وكان ذلك فى عيد أضحى، فأحضروها وصرفت

أثمانها فى إصلاح تلك الناحية المتهدمة، وكان محمد بن عبدالله ابن يحيى الليثى قاضى قرطبة كثيرا ما كان يخرج إلى الثغور ويتصرف فى إصلاح ما وهى منها حتى مات فى بعض الحصون المجاورة لطليطلة.

وظهور العلماء فى أمثال هذه المواقف يغرس لهم فى نفوس الأمة ودا واحتراما، ويورثهم فى رأى أولى الأمر مقاماً كريماً، أفلا نذكر أيام كان أمراء الإسلام يعرفون فى طائفة من العلماء رجاحة الرأى وصراحة العزم وخلوص السريرة فيلقون إليهم بقيادة الجيوش فيكفون بأس أعدائهم الأشداء، وما كان أسد ابن الفرات قائد الجيش الذى فتح صقلية إلا أحد الفقهاء الذين أخذوا عن مالك بالمدينة ومحمد بن الحسن فى بغداد وعبدالرحمن بن القاسم فى القاهرة.

ينظر أهل العلم الى ما غرق فيه بعض شبابنا من التشبه بالمخالفين وتقليدهم فى عادات لا تغنى من الرقى شيئا، وقد يرى بعضهم انحطاط كثير من أبنائنا فى هذا التشبه والتقليد، فيعده قضاء مبرما، ويملكه خاطر اليأس حتى ينتكث من التعرض للشئون العامة ومعالجتها، ولكن الذى يعرف علة هذا التسرع ويكون قد قرأ التاريخ ليعتبر، يرى الأمر أهون من أن يصل بالنفوس إلى التردد فى نجاح الدعوة، بله اليأس من نجاحها.

وأذكر بهذا أن كاتبا كتب فى إحدى المجلات مقالا تحت عنوان «وحدة العالم» يدعو فيه إلى مسايرة أوروبا فى السفور ونحوه، وقال فى علة الدعوة إلى هذه المسايرة: ليخرج الشرق والغرب فى مدنية واحدة، وأشار على دعاة الإصلاح فى الشرق بأن لا يقفوا فى سبيل هذه المَدَنِيَّة زاعما أنهم لا يستطيعون مقاومتها، ولا يزيدون على أن يجعلوا سيرها بطيئا، ورغب إليهم أن يحثوا الناس على المسارعة إلى قبولها.

والذين ينظرون إلى مدنية أوروبا باعتبار، يبصرون فيها على البداهة ما لا يرتضيه العقل ولا يقبله الشرع، واختلاف الأمم بالحق خير من اتحادها على باطل، ولا يفوت الحكمة أن تجد نفوسا مهذبة وعقولا سليمة فتقبلها. فَحَقِيقٌ على العلماء أن يبتسموا لهذا الرأى تبسم الازدراء ولا يقيموا لمثله وزنا إلا أن يكشفوا سريرته ويعرضوا على الأنظار سوء مغبته، والعالم بحق من يتدرع بالإيمان والثقة بما وعد الله به الداعى إلى الحق من الظهور على أشياع الباطل وإن أوتوا زخرفا من القول وسعة من المال وكانوا أكثر قبيلا.

لا ينبغى لأهل العلم أن يغفلوا عن سير أرباب المناصب والولايات، فمن واجبهم أن يكونوا على بينة من أمرهم، حتى إذا أبصروا عوجا نصحوا لهم بأن يستقيموا، أو رأوا حقا مهملا لفتوا إليه أنظارهم وأعانوهم على إقامته.

أمر السلطان سليم بقتل مائة وخمسين رجلا من حفاظ الخزائن، فبلغ هذا النبأ الأستاذ علاء الدين الجمالى وكان متوليا أمر الفتوى، فذهب إلى السلطان وقال له: وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وهؤلاء الرجال لا يجوز قتلهم شرعا، فعليك بالعفو عنهم. فغضب السلطان سليم، وقال له: إنك تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك، فقال الأستاذ علاء الدين: لا بل أتعرض لأمر آخرتك، وإنه من وظيفتى فإن عفوت فلك النجاة، وإلا فعليك عقاب عظيم، فانكسرت سورة غضب السلطان وعفا عن الجميع.. ومتى كان فى ولاة الأمور شيء من العدل، وكان فى الداعى إلى الإصلاح حكمة وإخلاص، نجحت الدعوة فى سعيها، وبلغت بتأييد الله مأربها.

يكون العالم رفيقا فى خطابه لينا فى إرشاده، أما إذا أراده ذو قوة على أن يقول ما ليس بحق أو يأتى ما ليس بمصلحة، أخذ بالتى هى أرضى للخالق، وكان مثالا للاستقامة صالحا، أذكر أن أحمد بن طولون دعا القاضى بكار بن قتيبة إلى خلع الموفق من ولاية العهد فأبى، فحبسه وكرر عليه القول، فأصر على الإباء، وبقى فى السجن حتى ثقل ابن طولون فى مرض الوفاة، فبعث إلى القاضى بكار يقول له: أَرُدُّك إلى منزلتك أو أحسن منها، فقال بكار للرسول: قل له: شيخ فان، والملتقى قريب، والقاضى الله ـ عز وجل ـ فأبلغ الرسول ابن طولون

ذلك، فأطرق ساعة ثم قال: شيخ فان، والملتقى قريب، والقاضى الله - عزوجل - وأمر بنقله من السجن إلى دار اكتريت له.

وإنما يقوم العالم بإسداء النصيحة إلى ذى قوة أولا يوافقه فيما يخدش أمانته وتقواه، متى قدر مقامه العلمى قدره، وكان شأن العلم أسمى فى نظره من كل شأن، وهذا الشعور هو الذى يهيئه بعد داعية الغيرة لأن يجاهد فى سبيل الحق مستهينا بكل مايعترضه من أذى.

ومن أدب العلماء أن ينصحوا للأمة فيما يقولون أو يفعلون، ويحتملوا ما ينالهم فى سبيل النصيحة من مكروه، وكم من عالم قام فى وجه الباطل فأوذى فتجلد للأذى، وأجاب داعى التقوى متأسيا بقوله - صلى الله عليه وسلم - «اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون».(١) وممن جرى على هذا الخلق المتين أبوبكر ابن العربى يوم كان قاضيا بأشبيلية، قال فى كتاب العواصم من القواصم: حكمت بين الناس فألزمتهم الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى لم يك يرى فى الأرض منكر، واشتد الخطب على أهل الغصب، وعظم على الفسقة الكرب، فتألبوا وألبوا، وثاروا علىّ، فاستسلمت لأمر الله وأمرت كل من حولى ألا يدفعوا عن دارى، وخرجت على السطوح بنفسى، فعاثوا

---

(١) البخارى ٤/٢١٤ ، مسند احمد ١/٤٤١

علىَّ حتى أمسيت سليب الدار، ولولا ماسبق من حسن الأقدار، لكنت قتيل الدار(١) .

ولايستحق لقب عالم أو مصلح ذلك الذى يدعو الناس إلى العمل الصالح ويقبض عنه يده، أو ينهاهم عن العمل السيء ولايصرف عنه وجهه، فمن أدب العلماء أن يسابقوا الأمة إلى اجتناب ما يؤاخذ به، وعمل مايحمد عليه كأن ينفقوا فى وجوه البر والمشروعات الصالحات ما ينفقه أمثالهم من المكثرين أو المقلين، فان ذلك أدل على إخلاصهم، وأدعى إلى توقيرهم وقبول نصائحهم.

وإذا كان العدد القليل فيما سلف يكفى لحراسة الدين وإرشاد من ينحرف عنه حتى يعود إليه، فلأن سلطان الإسلام يومئذ، غالب وصوت الجهل عليه خافت، أما اليوم فالحال ماترون وماتسمعون، فلا يمكن للدعوة أن تأتى بفائدتها إلا أن تضم المعاهد الاسلامية بين جدرانها طوائف كثيرة من أولى الغيرة والعزم، يصرفون جهدهم فى الدفاع عن الدين والدعوة إلى الخير، ويعيدون الدعوة مرة بعد أخرى.

وستنبت المعاهد الاسلامية ـ إن شاء الله كثيرا ـ من العلماء القوامين على نحو ماوصفناه، ولاسيما حين يأخذ التعليم

---

(١) يعنى مثل سيدنا عثمان بن عفان حيث قتل فى داره

بالأزهر الشريف نظامه الأسمى، ويجرى مثل هذا النظام فى غيره من المعاهد الإسلامية كجامع الزيتونة فى تونس، وجامع القرويين فى فاس، ويقوى الأمل فى أن تؤتى هذه المعاهد الثمرة الغزيرة الطيبة متى نظر إليها أولو الأمر برعاية، وعاملوا النشء المتخرجين فيها بما يدل على أنهم يحترمون الشريعة ويقدرون ماتبثه فى الأمة من رشد وإصلاح.

• • •

http://albordj.blogspot.com

أصول سعادة الأمة

سعادة الأمة أن تستنير عقولها وتسمو أخلاقها، وتغتبط بالنظم التى تساس بها، وترضى عن طرق تطبيقها وترتاح إلى تنفيذها، وتأمن أن تمتد يد غريبة إلى حق من حقوقها:

أما استنارة عقولها فبإقامة معاهد كافية للتعليم، فإن الأمة التى تتألف من متعلمين وغير متعلمين يصعب على قادتها متى أرادوا توجيهها نحو الحياة الصالحة أن يجدوها لينة القياد خفيفة الخطا، والتعليم الصحيح مايؤخذ فيه بأرقى النظم وأحكم الأساليب. وتلقى العلوم بأساليب غير مهذبة هو العلة فى تباطؤ النهضة العلمية وعدم انتظام طرق البحث والتفكير.

ولاسبيل إلى أن يُغبط الشعب بنهضته العلمية حتى يتربى نشؤه على أن يطلبوا العلم بداعى اجتلاء الحقائق والحرص على أسمى الفضائل. ومما يقعد بهم عن مرتبة النبوغ والابتكار فى العلوم أن يجعلوا لطلب العلم غاية مادية حتى إذا أدركوها انقطعوا.

والتعليم الذى تؤمن عاقبته وتزكو ثمرته ما اهتدى فيه الطلاب إلى طريقة نقد الآراء وتمحيصها حتى لايقبلوا رأيا إلا أن يستبينوا رجحانه بدليل، وقد رأينا رأى العين أن طائفة من

أبنائنا قد انحرفوا عن طريق الرشد، ولو كانوا ممن يرد الآراء إلى قوانين البحث المعقولة لاستقاموا على هدى الله وما كانوا من المفتونين.

وأما سمو أخلاقها فلتستقيم أعمالها وتنتظم المعاملات بينها، والأعمال الخطيرة إنما تقوم على نحو الصبر والعزم والكرم والإقدام، والمعاملات الرابحة لاتدوم فى تماسك وصفاء إلا أن تكون محفوفة بنحو الصدق والأمانة والحلم وسماحة النفس ورقة العاطفة، وهذا الوجه من وجوه السعادة مُلْقى فى عُهْدَةِ من يتولى أمر التربية كالأمهات والآباء ورجال التعليم، ولايكون فى الأمهات والآباء والمعلمين كفاية لأن يخرج الطفل أو الفتى من بين أيديهم طاهر السريرة مستقيم السيرة حتى يكون التعليم الدينى ضارباً بأشعته فى جميع مدارسنا أولية كانت أو عليا، وإذا وصلت التربية الدينية إلى النفوس من طريقها الصحيح فلا ترى منها إلا حياء وعفافا، وصدقا وأمانة، واستصغارا للعظائم وغَيْرة على الحقائق والمصالح، وما شئت بعدُ من عزة النفس وكبر الهمة. تلك خصال لاتثبت أصولها وتعلوا فروعها إلا أن يتفيأ عليها ظلال الهداية ذات اليمين وذات الشمال.

وأما توافر وسائل الثروة فلتكون مرافق الحياة بين يديها، والعيش ميسورا لكل فرد من أفرادها، وما أبعد الأمة عن

سعادة الحياة إذا كثر فيها أولئك الذين يتكففون الناس فى أيديهم، وأولئك الذين يترددون على المقاهى والنوادى فى الصباح كما يترددون عليها فى المساء !

من حقوق الأمة أن يهيىء لها ولاة أمورها الوسائل للأعمال العامة وينظروا فى ترقية الصناعة والزراعة والتجارة وتوسيع دائرتها، يعنون بها من الوجهة العلمية بفتح مدارس لتلقى ماله اختصاص بهذه الأصول الاقتصادية من علوم وفنون، ويعنون بها من الوجهة العملية بإنشاء مصانع وتشجيع الزراع وتدبير الوسائل لرواج البضائع الوطنية مااستطاعوا، وبمثل هذه المساعى تجدُ الأيدى العاطلة مجالا للعمل، ولاتخرج أثمان ملابسنا وأمتعة منازلنا وسائر مرافق حياتنا عن حدود أوطاننا.

وليست تبعة الحالة الاقتصادية ملقاة على عاتق أولى الأمر وحدهم، بل على الموسرين حظ من هذه التبعة عظيم، إذ فى ميسورهم تأليف شركات تراعى فى نظمها أصول الدين الحنيف، فتفيض بربح مبارك غزير، ويعيش من العمل بها خلق كثير.

أقمت فى عاصمة ألمانيا وبعض مدنها وقراها زمناً غير قصير، فلم أَرَقَط سائلا سليم البنية، بل لم أر فى تلك المدة متكففاً غير نفر قليل هم مابين رجل مقطوع اليد أو الرجل، أو عجوز بلغت من الكبر مافت فى عضدها، لم أر سليم البدن

يتكفف، إذ لايعدم سليم البدن أن يجد هنالك عملا حيوياً إذا شاء، والتعليم، وهو هنالك إلزامى، يقبح لصاحبه أن يقف موقف الاستجداء.

وكثير من أمراء الإسلام كانوا ينظرون إلى الأمة برأفة ويجتهدون فى أن يخففوا عنها متاعب الحياة ماقدروا. وهذا طاهر بن الحسين يقول فى كتابه الذى بعث به إلى ابنه عبدالله حين ولاه المأمون مصر والرقة ومابينهما: «وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم، واجعل لهم أرزاقا من بيت المال، وانصب لمرضى المسلمين دورا تأويهم، وقواما يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم مالم يؤد ذلك إلى سرف فى بيت المال».

وفى فتح طرق العمل للمستطيعين، وإقامة مستشفيات وملاجىء للمرضى والعاجزين، إنقاذ للأمة من أن تقود الحاجة طائفة من أبنائها إلى نواد أو مستشفيات يفتحها من يقصد إلى إفساد عقائدها الدينية، أو إطفاء غيرتها الوطنية.

وأما الاغتباط بالنظم المدنية فذلك مايدعوها إلى أن تحترمها من صميم أفئدتها فتراعيها فى السر كما تتقيها فى العلانية، فيكتفى الناس فى أكثر الخصومات بمعرفة الحق من طريق الاستفتاء. وأولو الأمر هم الذين يقرون النظم المدنية ويقومون على تطبيقها، فأولو الأمر على اختلاف طبقاتهم وتفاوت

مقاماتهم طائفة من الأمة تولوا النظر فى شئونها العامة، فيجب أن يتجلى فيهم روح النيابة عنها، ولايتجلى هذا الروح إلا أن يعملوا على ما يكفل مصالحها. ومقتضى هذا أن تساس بنظم تراها أحكم وضعا وأرعى للمصالح، والأمة الاسلامية إنما تشهد للنظم بالحكمة ورعاية المصالح. متى وافقت أصول شريعتها ولم ينتهك بها شىء من حرمتها.

وأما الرضا عن حال التطبيق فلأن صحة النظم إنما يظهر أثرها على أيدى من يوكل إليهم أمر تطبيقها. وما مزية القانون العادل إذا وكل العمل به إلى من لم تُحْسن المدرسة أدبه ؟ فتطبيق القوانين على الحوادث يرجع إلى أدب الحاكم ومبلغه من العلم والفهم. فمن حق الأمة أن لايتولى الحكم فيما شجر بينها إلا ذو ثقافةٍ يجيد بها عمل التطبيق، واستقامة يقف أمامها القوى والضعيف على سواء، وهذا مايدور عليه .ففضيلة العدل المأمور به فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ (١)

وقوله تعالى :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٢)

---

(١) النساء (٥٨). (٢) المائدة (٤٥).

وأما الارتياح لطرق التنفيذ فيعود إلى السلطة الإجرائية كإدارة الشرطة. وحق الشعب على هؤلاء أن تأخذهم به الرحمة، ويشعرون بأنه جسدُهم بعض أعضائه.

أقمت فى بعض البلاد الشرقية فكنت أرى بين رجال القوة المسلحة وسائر الوطنيين جفاء يتطاير شرره لأدنى مخاطبة تدور بينهما، ثم رحلت إلى عاصمة أوربية فى بعض المدن والقرى، فكنت أرى تعاطفا وائتلافا بين الجند والشرط وبقية الشعب، ولا يكاد الناظر يفرق بينهما إلا بما يحمله الأولون من هيئة رسمية أو سلاح، كنت أشاهد سائق العجلة يجادل الشرطى مدة غير قصيرة وأصواتهما فى ارتفاع متساوية، ولا يكون بعد هذا إلا أن يقنع أحدهما الآخر ويفترقا.

نحن نعلم أن انتشار التعليم فى الشعب يساعد رجال الأمن وغيرهم على تنفيذ النظم العامة بكلمة ينبهون بها من يروم مخالفتها، ولكن المحروم من التعليم هو فى حاجة إلى أن ينظر اليه بشفقة ويعالج بشىء من الرفق إلا أن يخرق النظام متمرداً.

قال معاوية بن أبى سفيان: «لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى».

00465(8

وتطبيق النظم على الواقع وتنفيذها بعدل، حق من حقوق الأمة على ولاة أمورها، وإذا توقف على شيء يرجع الخطاب فيه إلى بعض أفراد الأمة كأداء الشهادة على وجهها، كانت تبعته على أولئك الذين يستطيعون أن يشهدوا بحق ويكتمون الشهادة وهم يعلمون.

وأما أمن الأمة من أن تسطو يد غريبة على حق من حقوقها فلتطمئن على عزتها وكرامتها، ولتشعر بأن من تلدهم سيعيشون كما تعيش الأمم ذات الشوكة أحراراً، ولا تأمن بأس خصومها ولا تنظر إلى مستقبل أبنائها إلا أن يكون ما بينها وبين رعاتها عامرا بالنصح من ناحية، وبحسن الطاعة من ناحية أخرى، فبالنصح ترقى معاهد التعليم فتستغنى بعلم أبنائها و كفايتهم للعمل عن أن تستمد وسائل الدفاع والمنعة من وطن غير وطنها، وبحسن الطاعة ينتظم أمر الجند وتبلغ القوة المالية غايتها.

وقد عنى الإسلام فيما عنى بهاتين الخصلتين العظيمتين: إخلاص ولاة الأمور للأمة، وطاعة الأمة لولاة أمورها، فأوجب على الولاة أن يقيموا سياستهم على رعاية الحقوق والمصالح، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه إلا لم يجد ريح الجنة(١)». ثم التفت الى

---

(١) صحيح البخارى

الرعية فأمرهم بحسن الطاعة. ومن شواهد هذا قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»(١).

فالحق أن سعادة الأمة فى أيدى رؤسائها، فاذا استقاموا على الطريقة وساسوها برفق وحرص على مصالحها وكرامتها، سارت بجانبهم مستقيمة، فلا تلبث أن تنجح فى سيرتها، وتظفر ببغيتها

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٢)

---

(١) صحيح البخارى

(٢) يونس (٦٣ . ٦٤) .

كبر الهمة في العلم

الحديث عن فضل العلم وما يناله طالبه من مجد وكرامة حديث لا يكشف عن غامض ولا يطرق السمع بجديد، فأقصد إلى شيء غير هذا. هو لفت أنظار نشئنا إلى ناحية تجعل المعارف لدينا غزيرة والمباحث محررة، والآراء مبتكرة، وهى الوسيلة التى صعدت بعلمائنا الذين خدموا الدين والعلم والمدينة، فكانت لهم المكانة التى يصفها التاريخ بإجلال وإعجاب، ونعنى بهذه الوسيلة: كبر الهمة فى العلم.

لكبر الهمة فى العلم مظاهر هى أن تقضى الوقت فى درس أو مطالعة أو تحرير، وأن تقتحم فى سبيل ذلك المصاعب وتدافع ما يعترضك من العوائق، وأن تبسط النظر فى كل مسألة تصديت لبحثها حتى تنفذ إلى لبابها، وأن تضع يدك فى كل علم استطعت إليه طريقا، ثم تحط رحلك فى علم فيه النجم الذى يهتدى به المدلجون، والغيث الذى ينتجعه الظامئون، وكبر همتك فى العلم يأبى إلا أن يكون للعلم مظهر هو العمل به والسير على ما يرسمه من الخطط الصالحة فى هذه الحياة.

أما صرف الوقت فى ابتغاء العلم فان للعمر أجلا إذا جاء لا يستأخر، وللعلم بحرا طافحا ليس له من آخر، فكل ساعة قابلة لأن تضع فيها حجرا يزداد به صرح مجدك ارتفاعا، ويقطع به

قومك فى السعادة باعا أو ذراعا، فإن كنت حريصا على أن يكون لك المجد الأسمى، ولقومك السعادة العظمى، فدع الراحة جانبا، واجعل بينك وبين اللهو حاجبا. وإذا أرجعنا البصر فى تاريخ النوابغ الذين رفعوا للحكمة لواء، وجدناهم يبخلون بأوقاتهم أن يصرفوا شيئا منها فى غير درس أو بحث أو تحرير.

قَدِمَ الحافظ ابن أبى حاتم صاحب كتاب «علل الحديث» القاهرة ليتلقى عن شيوخها ما لم يكن يعلم، فقضى فى مصر سبعة أشهر لم يجد هو وأصحابه من الوقت ما يهيئون فيه لطعامهم مرقا، وكانوا بالنهار يطوفون على الشيوخ، وبالليل ينسخون ويقابلون. وتقرأ فى حياة الفيلسوف أبى على ابن سينا أنه لم ينم مدة اشتغاله بالعلم ليلة كاملة، ولم يشتغل بالنهار بسوى المطالعة. ونجد فى التاريخ أن الفيلسوف ابن رشد لم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه وليلة بنائه على أهله.

لم يقض حق العلم، بل لم يدر ماشرف العلم ذلك الذى يطلبه لينال به رزقا أو ينافس فيه قرينا، حتى إذا أدرك وظيفة أو أنس من نفسه الفوز على القرين أمسك عنانه ثانيا، وتنحى عن الطلب جانبا. وإنما تَرْفَع الأوطان رأسها، وتبرز فى مظاهر عزتها، بهمم أولئك الذين يقبلون على العلم بجد وثبات، ولا ينقطعون عنه إلا أن ينقطعوا عن الحياة.

وأما اقتحام المصاعب فى الطلب فإن معالى الأمور وعرة المسالك محفوفة بالمكاره، والعلم أرفع مقام تطمح إليه الهمم، وأشرف غاية تتسابق إليها الأمم، فلا يَخْلُص إليه الطالب دون أن يقاسى شدائد ويحمل متاعب، ولا يستهين بالشدائد إلا كبير الهمة ماضى العزيمة. كان سعيد بن المسيب يسير الليالى فى طلب الحديث الواحد، ورحل أبو أيوب الأنصارى من المدينة إلى عقبة بن عامر فى مصر ليروى عنه حديثا، فقدم مصر ونزل عن راحلته ولم يحل رحلها، فسمع منه الحديث وركب راحلته وقفل إلى المدينة راجعا، ولم ينتشر العلم فى بلاد المغرب أو الأندلس إلا برجال رحلوا إلى الشرق ولاقوا فى رحلاتهم عناء ونَصَباً، مثل أسد بن الفرات وأبى الوليد الباجى وأبى بكر بن العربى.

يتجرع كبير الهمة مرارة حين تقف بينه وبين جانب من العلم عقبة، فاذا وجد مرعى العلم خصبا، فعناؤه فيما يدعونه راحة، وانقباضه فيما يسمونه لهوا، وألمه فى ساعة ينقطع فيها عن العلم يساوى ألم المستهتر فى الشهوات حين يقضى يومه فى غير شهوة. وقد يحسب من لم تصف بصيرته حتى يرى الحكمة من أسنى مظاهرها أن الذى يقول:

سهرى لتنقيح العلوم أَلَذُّ لِى   من وصل غانية وطيب عناق

إنما هو شاعر لا يبالى أن يفضل الشىء على ما هو أكمل

فى وجه الشبه وأقوى، ويبعد فى نظره أن يبلغ ابتهاج النفس عند تحقيق بحث علمى مبلغ ابتهاجها بلقاء الغانيات، ولكن الذى يقدر الحكمة يرى أن ناظم البيت لم يجد شيئا يحاكى به اللذة التى يجدها عندما يطلق فكرة وراء شوارد العلوم فيظفر بها، فجاء إلى هذا الذى اشتهر بين الناس أنه لذيذ بالغ، ووصف لذة الحكمة بأنها فوق لذته، فصاحب البيت لم يتجاوز فى تصوير ارتياحه لتنقيح العلوم حد الحقيقة.

وأما نفوذ النظر فى لباب المسائل فلأن وقوف طالب العلم عند ظواهرها واكتفاءه بالمقدار الذى يقصر به عن حسن بيانها وإجادة العمل بها، لا يبعدان به عن منزلة خالى الذهن منها. فإنما وضعت العلوم لتهدى إلى العمل النافع، ولا شرف لها فى نفسها، وإنما شرفها بما يترتب عليها من عمل صالح أو كَلِمٍ طيب فمن يقضى زمناً فى طلب علم ثم ينفصل عنه وهو لا يستطيع أن يدفع عن أصوله شبها، أو يضرب له من العمل مثلا، ذهب وقته ضائعاً، وبقى اسم الجهل عليه واقعاً فالفقيه بحق مَنْ تَعْرِضُ الواقعة لم يفصل لها الشارع حكما ولم يتناولها السلف باجتهاد. فيرجع إلى الأصول الثابتة والقواعد المقررة ويقتبس لها حكما موافقاً.

ولا نكتفى ممن يدرس البلاغة أن يتصور قوانينها، ويعرف أمثلتها إلاأن يبصر بها كيف تسرى فى كتاب الله سريان الماء فى الأزهار الناضرة، وحتى يستطيع أن يخطب أو يكتب على وفق ما درس من مناهجها الواضحة، وأساليبها الساحرة.

ولا يحق لنا أن نفتخر بفتيان درسوا الطبيعة والكيمياء، إلا أن يعودوا وفى قدرتهم أن يستقلوا بإدارة مصانع للدفاع، ومعامل لمرافق الحياة، فإنا نريد أن نعود كما كنا أساتذة فى العلوم نقلية أو عقلية نظرية أو مادية.

ومما رمى الأفكار فى خمول ووقف بها حقبة عن الخوض فى عباب العلوم إلى أمد بعيد، هذه المختصرات التى يقضى الطالب فتح مغلقها وحل عقدها قطعة من حياته، جديرة بأن تصرف فى اكتساب مسائل هى صميم العلم، والملكات تقوى بالبحث فى لباب العلم أكثر مما تقوى بالمناقشة فى ألفاظ المؤلفين. وممن نبه على أن الاختصار عائق عن التحقيق فى العلم أحد علماء القرن الثامن العلامة محمد المعروف (١) بالأيلى إذ قال: كل أهل هذه المائة على حال من قبلهم من حفظ المختصرات، فاقتصروا على حفظ ما قل لفظه ونزر حظه. وأفنوا أعمارهم فى حل لغوزه وفهم رموزه، ولم يصلوا إلى رد

---

(١) من أساتذة ابن خلدون

ما فيه إلى أصوله بالتصحيح، فضلا عن معرفة الضعيف والصحيح».

فمن أسباب الرسوخ فى العلم وطموح الهمم إلى التوسع فى البحث وعدم الرضا بما دون الذروة، قراءة الكتب التى تنسج على طريقة الاستدلال والغوص على أسرار المسائل، وهى طريقة المتقدمين من علمائنا.

وأما بسط النظر فى علوم متعددة فإنه أجدى لارتباط العلوم بعضها ببعض، فكلما كان الاطلاع على العلوم أوسع، كان البحث فى المسائل أجود، والخطأ فى تقريرها أقل، والاحتجاج عليها أسلم، فلا يجيد دراسة التفسير أو الحديث من لم يكن ضليعا فى العربية، ولا يحكم الاستدلال على العقائد ويدفع ما يحوم عليها من شبه إلا من كان عارفا بالتفسير والحديث والقوانين المنطقية والمذاهب والآراء الفلسفية، ولا يقوم على دراسة الفقه أو أصوله من لم يملأ يده من الحديث والتفسير والعلوم العربية.

واطلاع الرجل على علوم كثيرة يعرف موضوع بحثها ويقف على جانب عظيم من مبادئها، لا يمنعه من الإقبال على علم يجعل له من الدرس والمطالعة ما يرفعه إلى مرتبة أئمته الذين يكتبون فيه فيحققون، ويسألون عن أخفى مسائله فيجيبون، والذى يضع يده فى علوم شتى يمكنه أن يجارى طوائف العلماء

فى المباحث المختلفة، وعلى قدرما يكون للرجل من خبرة بالعلوم، يبعد عن مواقع الذلة، ويزداد فى أعين الناس تجلة.

عكف أبو صالح أيوب بن سليمان على كتاب العروض حتى حفظه، فسأله بعضهم عن إقباله على هذا العلم بعد الكبر، فقال: حضرت قوما يتكلمون فيه فأخذنى ذل فى نفسى أن يكون باب من العلم لا أتكلم فيه.

تقضى الحياة الراقية أن يقوم بكل علم طائفة يكونون السند الذى يرجع اليه، وكذلك كان علماؤنا فيما سلف: يقبل كل طائفة منهم على علم يقومون عليه دراية، ويقتلونه بحثا. وبهذا اتسعت دائرة المعارف وظهرت المؤلفات الفائقة. وتراهم قد عرفوا من قبل أن نجاح قصر الطالب على الرسوخ فى علم، يرجع إلى ترك الطالب وما تميل اليه نفسه من العلوم ومما نقرأ فى ترجمة أبى عبد الله محمد الشريف التلمسانى وكان راسخاً فى المنقول والمعقول - أنه كان يترك كل أحد من الطلبة وما يميل اليه من العلوم، ويرى أن كل ذلك من أبواب السعادة».

ومن لطف مبدع الكون أن جعل النفوس تختلف فى استعدادها للعلوم والفنون والصنائع، لينتظم شأن الحياة، وتتوافر وسائل السعادة.

وربما نشأ أفراد فى مهد واحد واختلف ميلهم إلى العلوم فبرز كل فى العلم الذى وافق رغبته ووجه إليه همته، كأبناء

الأثير الثلاثة: على (١) الملقب بعز الدين: إمام فى التاريخ، ومحمد (٢) الملقب بمجد الدين: نحرير فى الحديث والأدب، ونصر الله (٣) الملقب بضياء الدين: بارع فى الأدب وتحرير الرسائل. وكثير من علمائنا كانوا يدرسون علوما مختلفة يبلغون فى بعضها الذروة ويكتفون فى بعضها بالمقدرة على تدريسها أو تحقيق مباحثها عند الحاجة. فهذا أبو اسحاق الشاطبى تقرأ له كتاب الموافقات فتحس أنك تتلقى الشريعة من إمام أحكم أصولها خبرة، وأشرب مقاصدها دراية ، ثم تقرأ شرحه على الخلاصة فى النحو فتشعر بأنك بين يدى رجل هو من أغزر النحاة علما، وأوسعهم نظرا، وأقواهم فى الاستدلال حجة. والقاضى إسماعيل من فقهاء المالكية البالغين درجة الأجتهاد فى الفقه قد سمت منزلته فى العربية حتى تحاكم إليه علمان من أعلامها فى مسألة، وهما المبرد وثعلب.

وكبير الهمة فى العلم يريد أن يكون النفع بعلمه أشمل، ومما يدرك به هذا الغرض احترامه لآراء أهل العلم، ولا نعنى باحترامها أخذها بالقبول والتسليم على أى حال، وإنما نريد

---

(١) صاحب كتاب الكامل المعروف بتاريخ ابن الأثير.

(٢) صاحب كتابى النهاية فى غريب الحديث، وجامع الأصول فى أحاديث الرسول.

(٣) صاحب كتاب المثل السائر.

نقدها بتثبت، وعرضها على قانون البحث، ثم الفصل فيها من غير تطاول عليها ولا انحراف عن سبيل الأدب فى تفنيدها. والفطر السليمة والنفوس الزاكية لاتجد من الإقبال على حديث من يستخفه الغرور بما عنده مثل ما تجد من الإقبال على حديث من أحسن الدرس أدبه، وهذب الأدب منطقه.

وإذا كان الأستاذ كمدرسة يتخرج فى مجالس درسه خلق كثير فحقيق عليه أن يكون المثال الذى يشهد فيه الطلاب كيف تناقش آراء العلماء مع صيانة اللسان من هجر القول الذى هو أثر الإعجاب بالنفس، والاعجاب بالنفس أثر ضعف لم تتناوله التربية بتهذيب.

كبير الهمة يستبين خطأ فى رأى عالم أو عبارة كاتب فيكتفى بعرض ما استبان من خطأ على طلاب العلم ليفقهوه، ويأبى له أدبه أن ينزل إلى سقط الكلام أو يخف إلى التبجح بما عنده. وقد حدثنا التاريخ عن رجال كانوا أذكياء ولكنهم ابتلوا بشىء من هذا الخلق المكروه، فكان عوجا فى سيرهم، ولطخا فى صحفهم، ولو تحاموه لكان ذكرهم أعلى، ومقامهم فى النفوس أسمى، ومنزلتهم عند الله أرقى.

وخلاصة المقال: تذكير النبهاء من نشئنا بأن يقبلوا على العلم بهمم كبيرة، صيانة للوقت من أن ينفق فى غير فائدة، وعزم يبلى الجديدان وَهَمٌّ صارم صقيل، وحرص لا يشفى غليله

إلا أن يغترف من موارد العلوم بأكواب طافحة، وغوص فى البحث لا تحول بينه وبين نفائس العلوم وُعُورَةُ المسلك ولا طول مسافة الطريق، وألْسِنَةٌ مهذبة لاتقع فى لغو أو مهاترة.

ذلك عنوان كبر الهمة فى العلم، وذلك ما يجعل أوطاننا منبت عبقرية فائقة، ومطلع حياة علمية رائعة، وما نبتت العبقرية فى وطن نباتا حسناً، إلا كانت أرضه كرامة، وسماؤه عزة، وجوانبه حصانة ومنعة.

● ● ●

الانحراف عن الدين

علله، آثاره، دواؤه

بين أيدينا حكم رائعات، وعظات بالغات، وتاريخ عظمائنا مملوء بالهمم الكبيرة، والمساعى الخطيرة، وقد أتى علينا مع هذا النور الساطع والتاريخ المجيد حين من الدهر ونحن عن طرق السعادة والمنعة غافلون، وعن العمل للحياة الصالحة نائمون، جهل بعد علم، تقاطع بعد ائتلاف، بطالة بعد نشاط، صغار بعد شمم، خمول بعد نباهة شأن. كذلك كنا حتى جاءنا من صروف الليالى ما نبهنا من سباتنا، فنهضنا نبحث عن وسائل تقدمنا، ونجارى الأمم العاملة والأمل يملأ ما بين جوانحنا، نهضة مباركة، ولكن نفوساً خالطها من الانحراف عن سبيل الرشد ما خالطها، فأصبحنا فى حاجة إلى أن نشغل جانباً من أوقاتنا فى تقويمها.

حق علينا أن نبحث عن علل انحراف هذه النفوس حتى نعرف طريق علاجنا، فنزيح أو نخفف مرضا لو خلينا سبيله لسرى إلى نفوس كثيرة، وعاقنا أن نسير إلى السعادة كيف نشاء.

علل الانحراف:

النواحى التى يأتى من قبلها هذا الانحراف كثيرة، وجماعها

الجهل والدعايات الباطلة. وإليك البيان:

ينحرف الناشئ عن الدين متى شب على الجهل بحقائقه. وفريق من أبنائنا غير قليل لا يتعرفون الإسلام من وجهه الصحيح، وإنما ينتزعون صورته من مظاهر يرون عليها طوائف من المسلمين، ولم تكن هذه المظاهر من الإسلام فى كثير ولا قليل، فليس ببعيد أن يشهد الشاب شيئاً من البدع المزرية كضرب الدفوف فى المساجد، أو تحت رايات يحملها أحداث باسم الدين لهواً ولعباً، فيخالها من تعاليم الإسلام، ويسوء اعتقاده فى هدايته. ونحن نعلم أن بعض البلاد الداخلة تحت سلطان غير إسلامى قد تقام فيه حفلات مشهودة يكلف فيها بعض الجهلة من المنتمين إلى طرق المتصوفة أن يحضروها بأزيائهم الخاصة، وتقوم كل طائفة بأعمال يمتازون بها عمن سواهم، وقد يكون فى هذه الأزياء والأعمال مالا صلة له بالدين ولا بما ترضى عنه العقول السليمة، فتتناولهم من أجل هذه المظاهر الألسن بالازدراء، ولا شك أن شبابنا كبعض المخالفين الذين يشهدون هذه الحفلات قد يسبق إلى أذهانهم أن نسبة ما يعمل باسم الدين إلى الدين صحيحة. فيتجافون عنه وهو منه براء، فمظاهر البدع والمحدثات من وسائل إضعاف العقيدة فى نفوس أبنائنا، ومن أصعب العقبات التى تحول بين المخالفين وبين قبولهم للدين الحق بسهولة.

وإذا كان فى المتجافين عن الدين من قرءوا جانباً من الكتب المعزوة إليه، فعلة انحرافهم فيما يظهر أنهم لم يدرسوا تعاليمه خالصة مما أضيف إليها من مزاعم وأراء، ولم يبلغوا من قوة العلم أن يفرقوا بين الشرع الخالص وما يوضع بجانبه من أشياء لا تدخل في الصميم. ونحن نعلم أن في كثير من المؤلفات أحاديث موضوعة، وقصصاً مزعومة وآراء لا تستند إلى أصول معقولة، ومن الذى ينكر أن فى بعض الكتب أحاديث مصنوعة وقصصاً مختلفة، وأن فى مؤلفات بعض أصحاب الأهواء والمستضعفين فى العالم آراء سقيمة وأقيسة عقيمة؟

كان لهذه الكتب أثر سيئ فى نفوس بعض نشئنا، وقد اتخذ بعض من خف فى العلم وزنهم من هذه الكتب وسيلة إلى الطعن فى علماء الإسلام، فذهبوا يلتقطون هذه الآراء السخيفة ولا يتقون الله فى نسبتها إلى علماء الشريعة ليضعوا من شأنهم، مع أن أهل العلم من قبلهم، قد نقدوها بأنظار راجحة، وطرحوها من حساب الشريعة بالحجة الساطعة، وجعلوا تبعتها على أصحابها وحدهم، وأى طائفة من طوائف أهل العلم لا يوجد بينهم ذو رأى ضعيف أو ذوق عليل؟! بل العالم الراسخ قد تصدر عنه آراء تدفعها أصول العلم الذى رسخت فيه قدمه، ويردها عليه من هو أقل منه نباهة وأدنى فى العلم منزلة.

أما الفريق الذين ينكرون أشياء من صميم الدين فلم يجئهم الجحود من ناحية البحث الدقيق والنظر القائم على قوانين المنطق الصحيح، وإنما سبقت إليهم فى التعليم أو فى الجلوس ببعض الأندية آراء فتقبلوها، وتراءت لهم شبه فاعتنقوها. والآراء الفاسدة والشبه المغوية تربى فى النفوس الضعيفة أذواقاً سقيمة، ويكون لهذه الأذواق الحكم العاجل، حتى إذا أنكرت حقاً خيل إلى أصحابها أن إنكارهم صادف محزاً وظلوا فى جهالتهم يتخبطون، فقطع يد السارق أو السارقة مثلاً ـ قد تنازع فى حكمته بعض الأذواق الخاصة. ولكن الأحكام إنما يراعى فيها المصالح العامة، وفى قطع يد هذا الصنف من المجرمين مصلحة سنأتى على بيانها فى مقام غير هذا.

ولا تنسى بعد هذا أن ما بلغه الغربيون من التقدم فى العلوم والفنون قد جعل لهم فى القلوب إكباراً، وبلغ هذا الإكبار فى بعض النفوس الصغيرة أن يتفوه أحد الغربيين بكلمة يطعن بها فى حقيقة من حقائق الإسلام فيتلقوها منه بمتابعة، ويحسبوها طعناً صائباً، ولاسيما الكلمات التى تصدر من طائفة يخرجون فى زى الكتاب أو الفلاسفة، إذ يقع فى أوهام الغافلين أنه نتيجة نظر لا يعرف غير البحث والدليل، ويفوتهم أن فى هؤلاء الكتاب من لا يزال فى أسر تقاليده وعواطفه، وفيهم من يكون بارعاً فى ناحية من العلم قاصر النظر فى ناحية أخرى،

وهانحن أولاء نقرأ نتائج أبحاثهم فى موضوعات إلهية أو تاريخية أو اجتماعية أو لغوية، فنرى فيهم من يتبع الظن الذى لا يغنى من الحق شيئاً، وكان على نشئنا أن يعتبروا بالمناقشات التى تدور بين علمائهم أنفسهم، فإنها شاهد صدق على أن من علمائهم أو فلاسفتهم من يعتمد الرأى لمجرد الشبهة، ولا يبالى أن يسميه علماً وهو لا يرتبط بعد بالحجة أو ما يشبه أن يكون حجة.

ومن الطرق المضلة عن السبيل أن بعض الداعين إلى غير الإسلام قد وجدوا من موسريهم خزائن مفتحة الأبواب، تفيض عليه الأموال بغير حساب، ومن الميسور أن يتصل هؤلاء الدعاة ببعض البائسين من نشئنا الذين لم ينفذ الإيمان إلى سويداء قلوبهم، فيشتروا ضمائرهم أو ألسنتهم بشئ من حطام هذه الحياة، وربما أتوهم من ناحية الشهوات ففتحوا لهم أبوابها، وجعلوا ثمن تمكينهم منها الانسلاخ عن الدين، فلا يبالون أن ينسلخوا منه، إذ لم يدخل بعد فى قلوبهم حتى يكون أعز عليهم من كل ما تهوى أنفسهم.

ومن الذى لا يعلم أن معاهد تقام فى أوطاننا باسم العلم أو العطف على الإنسانية والغاية منها صرف النفوس عن صراط الله السوى؟ دل على هذا كتب يدرسونها فى هذه المعاهد، وهى كما قرأنا نبذاً منها محشوة بالطعن فى الإسلام والحط من شأن الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم - وهذا القس

زويمر نفسه ينبهنا على أن المدارس التي تعمل بها جماعات التبشير إنما تجعل وسيلة إلى تحويل المسلمين عن دينهم القويم، فقال في مقال تحت عنوان: (حركة التبشير في العالم الإسلامي) بعد أن ذكر ما يعترضهم من المصاعب في داخل أفريقية: «ومن المستطاع التغلب على هذه الصعوبة بالالتجاء إلى الوسائل المعروفة كالمتاجرة مع الأهالي وفتح المدارس لأبنائهم وما مثل ذلك».

وقد رأينا لهذه المدارس التي تفتح في سورية ومصر وغيرها من البلاد آثاراً محزنة.

فكم من فتى مسلم بعث به إليها فتخرج فيها وهو يحمل من التنكر لقومه وشريعتهم مثل ما يحمله خصومهم المحاربون.

ثم إن بعض الناشئين في مهد إسلامي قد أصيبوا بما يشوه فطرهم وأرادوا ألا يكون هذا التشويه مقصوراً على أنفسهم، فاجتهدوا في أن ينقلب الناس منقلبهم ويعملوا على شاكلتهم، فكان لهم في الاستخفاف بالعقائد الصحيحة والشريعة الحكيمة حركات طائشة، ولولا هداية القرآن ووقوف فريق من أهل العلم في وجوههم لاستدرجوا خلقاً كثيراً.

ونذكر بمنتهى الأسف أن من هذا الصنف من يقضي نصيباً من حياته في الدفاع عن الإسلام حتى يتبوأ مقعد الدعاة المصلحين، ثم لا يلبث أن يرى بضاعة الازدراء بالدين نافقة،

فيثور عليها مع الثائرين، ويسرع إلى لمز الرجال الذين رفعوا لواءه وقد كان يطنب فى تمجيدهم. وفى أمثال من يكون على هذا النعت خطر على النشء كبير، إذ الثقة التى أحرزها من قبل قد تجعلهم يسيغون أقواله بما تحمل من أقذاء وسموم، فيبلغ مأربه دون أن يفقد مكانته. ثم إن انحرافه عن الدين بعد أن كان من أنصاره قد يلقى فى نفوس المستضعفين أن هذا الذى قضى زمناً فى مظاهرة الدين لم يتجاف عنه إلا بعد أن بصر بالحجة واستبان له أنه كان على غير هدى، وصغار العقول لا يشعرون بأن فى الناس من يطوى فى نفسه حاجة يستطيع أن يلبس لها ثوب الرياء أمداً غير قصير، حتى إذا رأى قضاءها فى ذم ما كان يحمد، ومحاربة ما كان ينصر، وجد فى استعداده ما يساعده على أن يظهر فى أى لباس شاء.

آثار الانحراف:

دلت المشاهدة على أن الناشىء الذى يصاب بمرض الريب أو الجحود لايمكث أن ينحط فى المآثم وينبذ الأدب الرفيع والعمل الرشيد وراء ظهره، وإذا رأيناه يتجنب إثماً فبالمقدار الذى يتقى به لومة لائم أو طائلة قانون، وإذا عمل حسناً فلينال مدحاً وإطراء، أو ليصل إلى عاجل من المنافع المادية أكبر، وإن ناشئاً يعتقد أنه متى استتر عن أعين الناس لم يبق له فيما يفعل من رقيب ولا يناله على ما يأتى من جزاء، لا يتحامى فى

غالب أمره أن يعتدى على نفس أو عرض أو نسب أو مال الاعتداء الذى يشين وجه المدينة، ويحدث فى نظام الجماعة وهنا.

ودلت التجارب على أن زائغ العقيدة متى ملك جاهاً أو سلطة، فتن الأمة فى دينها، وانتهك حرمات شريعتها، ولم يخلص النظر فى إصلاح أمرها، ولاقى منه المؤمنون اضطهاداً، والجاحدون وأصحاب الأهواء مناصرة وإقبالا، فيكون داعياً عمليا إلى الخروج على الدين، فتموت الفضيلة والغيرة على الحقوق العامة، ويتقطع حبل اتحاد الأمة إربا.

دواء الانحراف:

حتم علينا أن نسعى إلى أن يكون التعليم الدينى شاملا، فما من ناشىء إلا يتلقى منه مقداراً يكفى لإنارة عقله وطمأنينة نفسه، ونقبل بعد هذا على كتب الدراسة فنتخير منها ما هو حسن الوضع، نقى من كل ما ليس بشرع، وبهذا نأمن أن يكون فى نشئنا من ينحرف عن الدين جهلا بحقائقه.

وإذا نحن سرنا فى تقرير أصول الدين وأحكامه على طريقة إقامة الحجة وبيان الحكمة، خففنا شر الصنف الذى ينكر أموراً من الدين بعلة أنها لا توافق المعقول أو لا تتحقق بها المصلحة

وإنما يستعان على جعل التعليم عاما بعناية أولى الأمر ونصحهم فى تدبير شئون الأمة، حيث يقررونه فى سائر

المدارس، ويقومون عليه كما يقومون على سائر العلوم. ومما يسر الأمة أن ترى من ولاة أمورها العناية بتعليم الدين الذى هو ملاك سعادة أبنائها فى الدين قبل الآخرة.

ومن واجب أهل العلم بعد هذا أن يرقبوا حركة الثائرين على الدين ويكونوا على بصيرة مما يكتبونه فى الصحف، أو يحضرون به فى النوادى ليقوموا أوده وينبهوا على خطره، حتى يستبين أمره، وتتضح أمام الناشئين طريقة قرع الشبهة بالحجة، وصرع الباطل بقوة الحق، وكذلك يفعل العلماء الراسخون، والكتاب المخلصون.

وحق على من يبغى السعادة لابنه أو لقريب وكل إليه أمره ألا يلقى به إلا حيث يأمن على إيمانه وطهارة نفسه، ولايذهب به الطمع فى متاع الدنيا إلى الاستهانة بأمر العقيدة، فإنها الأساس الذى تقوم عليه الحياة الطيبة والشرف الأصيل.

فإذا اشتدت عناية أولى الأمر بالتعليم الدينى فى المدارس على اختلاف أقسامها وفنونها، وأرهف أهل العلم أقلامهم فى حماية الشريعة ممن يتساقطون على الطعن فيها أو المكر فى تأويلها وأخذ الآباء بهدى الله فصانوا أبناءهم عن المدارس المنشأة للصد عن السبيل، خسرت تجارة الرهط الذين يجهلون على الحق والفضيلة، وتهيأت لنا أسباب نهضة علمية اجتماعية نجنى ثمراً لذيذاً من نتائجها، وتحمد الأجيال القابلة عاقبتها.

http://albordj.blogspot.com

سماحة الإسلام فى معاملة غير المسلمين

من يدرس أصول الإسلام بجد، ويذهب فى تعرف روح تشريعه مذاهب بعيدة المدى، يدرك دون أن يأخذه ريب أنه دين نزل من السماء ليضرب بهدايته فى أرجاء المعمورة، ويعلم الأمم أرقى نظم الاجتماع، وقد ارتفعت فى الشرق والغرب رايته، يوم تولى أمره زعماء لبسوا من آدابه برودا سنية، وتحروا فى الدعوة إليه سبلا سوية، ولا استطيع أن ألم فى هذا المقال بما احتوته شريعته من النظم المدنية، والقواعد التى تشهد بأنه تشريع لم يكن للعواطف البشرية والعادات القومية عليه من سلطان، فأكتفى بأن أصف لك ناحية يتمثل فيها عدل قضائه، ورفق سياسته، وسمو آدبه، تلك الناحية هى أصوله الخاصة فى معاملة غير المسلمين:

المخالفون فى نظر الإسلام محاربون، أومعاهدون، أو أهل ذمة، والمراد ذمة الله أى عهده، فهذا الاسم يشعر بأن من مسهم بأذى فقد خان عهد الله وعهد دينه الحنيف.

أما المحاربون فهم الذين يهاجمون أمة إسلامية، أو يتحفزون للهجوم عليها، أو يمدون أيديهم إلى حق من حقوقهم، وحكم الإسلام فى هؤلاء أن يدفعوا إذا هاجموا، ويبادروا بما يكف

بأسهم إذا تحفزوا، ويقوموا إذا اعتدوا على الحق حتى ينصفوا. يإذن الإسلام فى دفع المهاجم أو كف المناوىء، مع رعاية جانب الرفق والأخذ بالعرف.

ومن الرفق الذى أقام عليه سياسته الحربية أنه منع من التعرض بالأذى لمن لم ينصبوا أنفسهم للقتال كالرهبان والفلاحين والنساء والأطفال والشيخ الهرم والأجير والمعتوه والأعمى والزّمِن، ومن الفقهاء من لا يجيز قتل الأعمى والزّمِن ولو كانا ذوى رأى فى الحرب وتدبير.

ولا يجوز قتل النساء وإن استعملن لحراسة الحصون أو رمين بنحو الحجارة، ودليل هذا قوله ـ تعالى:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ ﴾ (١)

فجعل القتال فى مقابلة القتال. ونبه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن من لا يقاتل لا يقتل حين وجد امرأة فى بعض الغزوات قتيلة فأنكر ذلك وقال: «ما كانت هذه لتقاتل (٢)».

وإذا وضع المحاربون الأطفال والنساء أمامهم، وجب الكف عن قتالهم، إلا أن يتخذوا ذلك ذريعة للفوز علينا، ونخشى أن تكون دائرة السوء على جندنا.

---

(١) البقرة (١٩٠)

(٢) صحيح مسلم

ولا يجيز الإسلام التمثيل بالمحارب، قال صلى الله عليه وسلم: «ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا (١)». ويمنع من حمل رءوسهم من بلد إلى بلد أو حملها إلى الولاة، وقد أنكر أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - هذا وقال: هو فعل الأعجام.

ولم يشرع الإسلام للأسير حكما واحدا، بل جعل أمره موكولا إلى الأمير الذى يقدر مصلحة الحرب، وله أن يخلى سبيله بفداء أو بغير فداء.

ولا يرغم الإسلام المحارب على الدخول فى ملته، بل يعرض عليه أن يقيم تحت سلطانه آمنا على نفسه وماله وعرضه ودينه، ويستوى فى هذا الحكم أصحاب الأديان السماوية وغيرهم، قال الإمام مالك وصاحبه ابن القاسم: تقبل الجزية من كل من دان بغير الإسلام.

وأما المعاهدون وهم الذين انعقد بيننا وبينهم عهد على السلم، فيجب علينا الوفاء بعهدهم وأن نستقيم لهم ما استقاموا لنا، وإذا كان فى بعض ذوى القوة من يحس من خصمه المعاهد تحفزا إلى الخيانة فيسبقه إليها، فإن الإسلام يوجب فى حال الخوف من خيانة المعاهدين أن ننبذ لهم العهد علنا، وفى القرآن الكريم :

---

(١) رواه مسلم

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (١)

ولم يخص الإسلام تأمين المحارب بصاحب الدولة، بل هو حق لكل مسلم ومسلمة، فإذا أمن رجل أو امرأة من المسلمين محاربا، كان تأمينه نافذا، واعتصم بهذا التأمين من أن يناله أحد بسوء حتى يبلغ مأمنه وليس من شرط التأمين البلوغ ولا الإسلام، فلو أمن صبى يعلم ما يقول أو أحد من أهل الذمة بعض المحاربين، كان هذا التأمين عقدا محترما.

بلغ الدين فى رعاية عهد الأمان أقصى غاية، فلو أشار المسلم إلى الحربى إشارة يريد بها عدم التأمين ففهمها الحربى على التأمين، وجب له الأمان على حسب ما فهم من تلك الإشارة.

وهذا حكم التأمين فى حال الحرب، أما تأمين المحارب ليدخل البلاد بقصد التجارة فمن شأن أولى الأمر، ولو أمن أحد السوقة محاربا فدخل بقصد التجارة وظن المحارب أن هذا التأمين نافذ، وجب الوفاء له على حسب ظنه، وليس لولى الأمر إن لم يرض عن هذا التأمين إلا أن يرد المحارب إلى مأمنه.

---

(١) الأنفال (٥٨)

وإذا أخذ محارب أمانا لينظر فى الدين، ولم ينشرح صدره للإسلام، فما لنا إلا أن نرده إلى داره آمنا، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ (١)

ولو ظفر المسلمون بمحارب جاء مقبلا من بلد العدو فقال: جئت لأطلب الأمان، لم يجز التعرض له بمكروه، وإذا لم يروا المصلحة فى تأمينه ردوه إلى مأمنه.

ولو وجد المسلمون طائفة من المحاربين فى أطراف بلاد الإسلام فقالوا: جئنا تجارا وظننا أنكم لا تتعرضون لمن جاء تاجرا، فليس لنا إلا أن ندعهم وشأن تجارتهم أو نردهم إلى مأمنهم، إلا أن تقوم الشواهد على أنهم يقصدون من الشر ما لا يقولون.

ومن رعاية الإسلام لعهد التأمين أن أكد فى احترام أموال المعاهدين، حتى إذا رجع المعاهد إلى بلده وترك فى دار الإسلام وديعة أودينا، وجب إرسالها إليه، فإن مات بعث بها إلى ورثته إن عرفوا، فإن لم يعرفوا أرسل بها إلى رئيس قومه.

---

(١) التوبة (٦)

ويدلك على ما لعهد التأمين فى دين الإسلام من حرمة، قول عمر بن الخطاب: «إنه بلغني أن رجالا منكم يطلبون العلج حتى إذا أسند إلى الجبل وامتنع قال رجل «مترس(١)» يقول: لا تخف، حتى إذا أدركه قتله، وإني والذى نفسى بيده لا أعلم مكان واحد فعل ذلك إلا ضربت عنقه (٢)».

وأما من رضوا بالإقامة تحت راية الدولة الإسلامية فقد قرر لهم الدين من الحقوق ما يكفل حريتهم ويجعلهم أعضاء حية مرتبطة بسائر أعضاء الأمة المسلمة ارتباط ألفة وعطف وتعاون. توجد هذه الروابط فى القرآن والحديث وآثار الصحابة وأقوال أهل العلم من بعدهم.

يقتضى العهد الذى يعقد لأهل الذمة أن يقيموا تحت رايتنا متمتعين بحقوقهم الدينية، آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وإليك نص عهد عمر بن الخطاب لأهل إيليا: «أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسائر ملتهم، لا تسكن كنائسهم، ولا ينقص منها ولا من خيرها، ولا من صلُبهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم ».

إن القرآن كقانون أساسى لدولة الإسلام، فلم يترك ناحية من نواحى الاجتماع أو السياسة إلا وضع لها أصلا يهتدى به

---

(١) كلمة فارسية معناها لاتخف

(٢) الموطا

فى تفاصيل أحكامها، وانظر إليه ماذا صنع فى ناحية هى من أكبر النواحى الاجتماعية أو السياسية، وهى معاملة طوائف غير المسلمين إذا اختاروا الإقامة فى جوارنا ولم ينزعوا إلى مناوأتنا، إقرأ إن شئت ـ قوله تعالى ـ:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (١)

فالآية تحث على رعاية قانون العدل فى معاملتهم، وتدل بعد هذا على فضيلة البر بهم، وإذا عبرت عن هذا المعنى بعدم النهى عنه، فلأنها قصدت الرد على ما يسبق الذهن من أن مخالفتهم للدين تمنع من برهم، وتسهل الاستهانة بحقوقهم.

وقد جرى أمراء الإسلام العادلون على سيرة هذه الآية، فكانوا ينصحون لنوابهم بالعدل، ويخصون أهل الذمة فى نصيحتهم بالذكر، وأحسن مثل نسوقه على هذا كتاب عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى عمرو بن العاص وهو يومئذ الوالى على مصر، ومما جاء فى هذا الكتاب: «وإن معك أهل ذمة وعهد وقد وصى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم بهم ـ»

---

(١) المتحنة (٨).

ومنه: «وقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة» احذر يا عمرو أن يكون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لك خصما فإنه من خاصمه خصمه (١)». ومن الأحاديث الثابتة فى هذا الصدد قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «من قذف ذمياً حد له يوم القيامة بسياط من نار(٢)».

فانظروا إلى مكانة العهد فى نظر الإسلام، وزنوها بمعاهدات يأخذ فيها بعض الأقوياء على أنفسهم احترام حقوق شعب إسلامى حتى إذا أمسكوا بناصيته لم يستحوا أن يعبثوا بالأرواح، وتجول أيديهم فى الأموال، ويعملوا جهدهم على أن يقلبوهم إلى جحود بعد إيمان، ويحنقون بعد هذا كله على من يسميهم أعداء الإنسانية، وقابضى روح الحرية.

أدرك الفقهاء رعاية شارع الإسلام لأهل الذمة وحرصه على احترام حقوقهم، فاستنبطوا من أصوله أحكاما جعلوا المسلم وغير المسلم فيها على سواء، وأذكر من هذه الأحكام أنهم أجازوا للمسلم أن يوصى أو يقف شيئا من ماله لغير المسلمين

---

(١) روى الخطيب فى تاريخه عن ابن مسعود: «من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة».

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ٢٨٠، القرطبى ١٢/ ١٧٤.

من أهل الذمة، وتكون هذه الوصية أو الوقف أمراً نافذاً، ولما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «لا يبع الرجل على بيع أخيه ولا يخطب على خطبة أخيه (١) » قالوا: البيع على بيع غير المسلم الداخل فى ذمة الإسلام كالبيع على بيع المسلم، والخطبة على خطبته كالخطبة على خطبة المسلم: كلاهما حرام.

وإذا ذكر فقهاؤنا آداب المعاشرة، نبهوا على حقوق أهل الذمة، وندبوا إلى الرفق بهم، واحتمال الأذى فى جوارهم، وحفظ غيبتهم، ودفع من يتعرض لأذيتهم، قال شهاب الدين القرافى فى كتاب الفروق:

إن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا لأنهم فى جوارنا وفى خفارتنا وذمة الله ـ تعالى ـ وذمة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فى عرض أحدهم، أو أى نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك، فقد ضيع ذمة الله ـ تعالى ـ وذمة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذمة دين الإسلام، وقال ابن حزم فى مراتب الاجماع: «إن من كان فى الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك صونا لمن هو فى ذمة الله ـ تعالى ـ وذمة

---

(٢١) صحيح الإمام مسلم.

رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة».

وجعل الإسلام أحكام رؤسائهم فيما بينهم نافذة، فلهم أن يتحاكموا أمام رؤساء مللهم فيما يعرض لهم من القضايا، وإنما اختلف علماؤنا فيما إذا رفع الخصمان منهم القضية إلى الحاكم المسلم، فقال المالكية: إن كان ما رفعوه ظلماً لا تختلف الشرائع فى تحريمه كالغصب والقتل،وجب على الحاكم المسلم أن يفصل فيه على وجه العدل، فإن كان مما تختلف فيه الشرائع، كان له الخيار فى الفصل بينهم بشريعة الإسلام، أو صرفهم إلى رئيس طائفتهم. وحملوا على هذا الوجه قوله ـ تعالى ـ:

﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ (١)

وقال الإمام أبو حنيفة: على الحاكم المسلم متى ارتفع اليه الخصمان من أهل الكتاب أن يفصل فى قضيتهم. وليس له الإعراض عنهم. وأخذ فى وجوب الفصل بينهم بقوله ـ تعالى:

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ (٢)

---

(١) المائدة (٤٢)

(٢) المائدة (٤٩)

وقال: إن الأمر القاطع فى هذه الآية ناسخ للتخيير فى آية

﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

هذا أصل البحث فى هذه المسألة، أما تفصيل المذاهب وبسط أداتها فموضعه كتب الفقه وأحكام القرآن.

وأباح للمسلم أن يتزوج تحت سلطان الإسلام بيهودية أو نصرانية، وجعل لها من الحقوق ما لزوجته المسلمة، وفى الزواج صلة الصهر، وتتبعها صلة النسب، وفى هذا شاهد على أن الدين الحنيف ليس بالدين الذى يدعو إلى التقاطع المانع من المعاشرة بالمعروف والتعاون على مرافق الحياة.

وكره الإسلام أن يجرى المسلم فى مخاطبة غير المسلمين مجرى أولئك الذين يتعصبون لمعتقداتهم بغير حق، فيطلقون ألسنتهم بإذاية من يجادل فى صحتها، فقال ـ تعالى ـ

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾(١)

وقال ـ تعالى ـ:

﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن
ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(٢)

---

(١) العنكبوت (٤٦)   (٢) النحل (١٢٥)

وخاتمة المقال أن المسلمين قد استناروا بسماحة دينهم، وتعلموا من آدابه أن يحسنوا معاشرة أصحاب الأديان الأخرى ممن لا يكيدون لهم كيداً، ولا يظاهرون عليهم عدواً، ويمكنهم أن يعيشوا معهم فى صفاء وتعاون على المصالح الوطنية، وكثيراً ما نقرأ أنباء من يشرح الله صدورهم للإسلام فنجدهم حيث يذكرون دواعى اهتدائهم يصرحون بأن من هذه الدواعى ما يرونه فى هذا الدين من سعة الصدر، والأمر بالرفق والإحسان فى معاملة المخالفين، وبأن لا يزاد عند جدالهم على دفع الشبهة بالحجة.

● ● ●

http://albordj.blogspot.com

التعاون في الإسلام

الإسلام فى مقدمة الشرائع المتضافرة على حفظ الحقائق، وهى: الدين، والنفس، والعرض، والعقل، والنسل، والمال. فمن قصده إلى المحافظة على الدين فرْضُه القيام بالدعوة إليه والدفاع عن حوزته، ومن قصده إلى المحافظة على النفس شرْعُه القصاص، وفرضه حضانة الأطفال ورعايتهم، ومن قصده إلى المحافظة على العرض تقريره لعقوبة القذف بالزنا، وأمره بتأديب من يتطاول على غيره بلمز أو هجاء، ومن قصده إلى المحافظة على العقل شرعه لعقوبة من يتناول المسكرات ، أو يسعى فى إزالة عقل شخص بالضرب ونحوه، ومن قصده إلى المحافظة على النسل حثُّه على النكاح، وسنه لعقوبة من يعتدى على شخص فيبطل منه قوة التناسل ، ومن قصده إلى المحافظة على المال شرعُه لعقوبة السارق وقاطع الطريق.

وقد يقع بعض هذه الحقائق فى ضياع أو يكون مشرفا على الضياع، ويتعذر على الشخص الواحد العمل لسلامتها، فكان من مقتضى ثقل أعبائها أو كثرة شُعَبها، أن يمد إليه أشخاص آخرون أيديهم ليتعاون الجميع على حفظ دين أو نفس أو عرض أو عقل أو نسل أو مال.

ومن المعلوم الماثل أمام كل من تفقه في الدين أن الإسلام قد راعى عجز الأفراد عن القيام بكثير من المصالح الخاصة أو العامة، فأمر بالتعاون على وجه عام، ثم أقام كثيرا من أحكامه وآدابه على القاعدة التي ينتظم بها العمران، وتخف بها متاعب الحياة.

أما الأمر بالتعاون على وجه عام فمن شواهده قوله ـ تعالى

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ (١)

يتناول التعاون على البر والتقوى، المؤازرة في كل عمل ينتج عنه الخير، سواء كان القائم به فرداً أم جماعة ، وسواء كان الخير عائداً إلى فرد أم إلى أمة، ولا فرق في أصل طلب التعاون بين أن يكون الخير من مصالح الحياة الدنيا التي أذنت الشريعة بإقامتها، وأن يكون من وسائل السعادة في الأخرى، فمن التعاون على البر والتقوى أن يقوم الرجل للصلاة فتناوله وضوءاً، أو تهيىء له مُصلَى، ومن التعاون على البر والتقوى أن ينهض القوم لإعلاء كلمتهم بنحو بناء المدارس أو المستشفيات أو الملاجئ أو إقامة مصانع تسد جانباً من حاجاتهم المدنية، فتبذل في إسعادهم ما تستطيع من قوة.

---

(١) المائدة (٢)

ويدخل فى الإثم والعدوان كل عمل يعطل شريعة من شرائع الدين، أو يعود على النفس أو العرض أو العقل أو النسل أو المال بالفساد، فمن التعاون على الإثم والعدوان أن تقضى للخصم بقطعة من مال خصمه وأنت تعلم أنه يدعيها زورا وبهتانا، ومن التعاون على الإثم والعدوان أن تشهد حفلات ترتكب فيها بعض محرمات كتعاطى المسكرات، أو رقص الفتيان مع الفتيات، ومن التعاون على الإثم والعدوان أن تشترى ورقة من تلك الأوراق التى يصدرها جماعات، ويسمونها «الياناصيب» فإنها من الميسر الذى وصفه الله - تعالى- بأنه رجس من عمل الشيطان، ومن التعاون على الإثم والعدوان أن تكون كاتب البطاقة التى يأمر فيها الظالم بالإعتداء على نفس أو عرض أومال.

ومما ورد فى التعاون قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً(١) ». فإن قصد أحد إلى من بينك وبينه إخاء ليعتدى عليه فى نفسه أو ماله أو عرضه، وجب عليك الانتصار للمعتدى عليه ودفع المعتدى بما يكفى للخلاص من شره، وذلك معنى الانتصار له وهو مظلوم، أما الانتصار له وهو ظالم، فقد بينه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى نفس الحديث

---

(١) رواه البخارى وأحمد عن أنس بن مالك

بمعنى الأخذ علي يده، ومنعه من الظلم، وفى كفه عن الظلم الذى يذيقه عذاب الهون فى الآخرة، ويلبسه ثوب الخزى فى الأولى، انتصار له أىّ انتصار.

ومن الوجوه التى تدل على قصد الشريعة إلى التعاون، تحريم السؤال على مستطيع الكسب، وفى هذا التحريم باعث له على القيام بجانب من حاجات الأمة، وفى إخلاد القادر على الكسب إلى السؤال بليتان اجتماعيتان:

(أولاهما): فوات الانتفاع بشخص يمكنه أن يكون كقطرة صالحة فى دم حياة الأمة، فتزداد به قوة على قوتها

(ثانيتهما): بقاؤه فى جسم الأمة كعضو يشرب من دمها ويأكل من لحمها، بل كعضو يسرى منه مرض البطالة إلى أشخاص لا تعرف نفوسهم العزة، فيكثر سواد هؤلاء الثقلاء فى البلاد، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

«والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتى رجلا أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه» (١). فحرام على من يستطيع كسب الرزق أن ينكث يده من العمل ويجلس متشوفا لما سمحت أو تسمح به نفوس المحسنين لمن قعد به العجز عن طريق الاكتساب.

---

(١) كتاب الموطأ

فلو بدا لأولى الأمر أن يهيئوا للعاجزين عن الكسب ملاجىء ويأخذوا على أيدى المتسولين حتى يضطر صحيح البنية إلى مباشرة بعض الأعمال الحيوية، لوجدوا فى الإسلام ما يحثهم على أن يبنوا الملاجىء، ويمنعوا المتكففين من التجول فى الطرق والأسواق.

وقد بث الإسلام روح التعاون فى النفوس لأول ظهوره، ترى هذا فى حياة المسلمين بالمدينة عقب الهجرة، فقد ورد فى الصحيح أن المهاجرين قدموا من مكة وليس بأيديهم شىء، فعرض الأنصار على النبى- صلى الله عليه وسلم -أن يقسم النخيل بينهم وبين المهاجرين، فقال: لا، فعرضوا عليه بعد أن يكفيهم المهاجرين مئونة العمل ويشركوهم فى الثمرة، فأجاب لذلك، فقاسمهم الأنصار على ذلك، وكان الأنصار يؤثرون المهاجرين بما عندهم وإن كانوا فى حاجة إليه، وهو الإيثار الذى مدحهم الله- تعالى- به فى قوله:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾(١)

ومن قصد الشارع إلى التعاون على وجه عام، أنه نظر إلى الأعمال المنطوية على مصالح، فكان منها ما تحصل مصلحته لكل شخص يقوم به، وتوجد هذه المصلحة كلما قام به قائم وهو

---

(١) الحشر (٩)

مستوفى الشروط والأسباب والأركان، فجعل الخطاب فيه موجها إلى كل من بلغ سن التكليف، كالصلاة والصيام والحج والزكاة، وهذا ما يسميه الفقهاء بالواجب على الأعيان، ومنها ما تحصل مصلحته بفعل شخص أو أشخاص، ولو قام غيرهم من بعدهم ليفعله وجد المصلحة قد تحققت، فجعل الخطاب فيه موجها إلى الأمة على أن تقوم به طائفة منها، كتجهيز الموتى، وإنشاء ما يكفى حاجة البلاد من المدارس، وهذا ما يسمى فى عرف الفقهاء بفرض الكفاية.

والحقيقة أن الطلب فى فرض الكفاية يتوجه إلى من فيهم الكفاية للقيام بالعمل المطلوب، وإذا قام به بعضهم سقط الطلب عن سائرهم، فولاية القضاء مثلا - يتوجه الطلب فيها إلى من درسوا أحكام الشريعة وكان لهم مقدرة على تطبيق الأصول على الوقائع، وإنقاذ الغرقى يتوجه الطلب فيه إلى من يحسنون السباحة، وإغاثة المضطر يتوجه الطلب فيها إلى من يستطيعون الإغاثة، ونصرة المظلوم يتوجه الطلب فيها إلى من كان قادر على أن ينصره بانفراده أو بالانضمام إلي غيره.. إنما جعل الخطاب فى فرض الكفاية موجها إلى الأمة لأنه يجب على من لم يكن فيهم أهلية للعمل المطلوب أن يهيئوا وسائله لمن فيهم أهلية، أو يجبروهم على القيام به إذا أهملوا أو تباطئوا. فدفع الشبه وتقويم الزيغ واجب على العارفين بأصول الدين، فإذا

دخلت الضلالة فى قرية لا يوجد فيها من فيهم الكفاية لتقويم الزائغين، وجب على من فيهم الكفاية ببلد آخر أن ينتقلوا لإرشاد أولئك الضالين، وإن احتاجوا إلى نفقة أو وسيلة غيرها وجب على القادرين على مساعدتهم بالمال أو بتهيئة ما احتاجوا إليه من الوسائل أن يعينوهم على أداء واجب الإرشاد، فيسقط الوجوب عن الجميع. وقيادة الجيوش تجب على من جمع إلى الشجاعة العلم بالفنون الحربية، فإذا امتنع من تحققت فيهم شروط القيادة من الخروج إلى مواقع القتال، لا يتركون وشأنهم بعلة أن الأمر بقيادة الجيش موجه إليهم وحدهم، بل على أولى الشأن إجبارهم على تولى قيادة الجيش، فإن لم يجبروهم كانوا فى العقوبة سواء بل لولى الأمر أن يعمد إلى من فيهم الكفاية لأمر من الأمور، ويعين من بينهم شخصا أو أشخاصا للقيام به، فيصير بهذا التعيين فرض عين لا يسوغ لهم التأخر عنه.

ومن المطلوب على الكفاية ماهو دينى محض كالصلاة على الميت، ومنه ما يرجع إلى مطالب مدنية كتعاطى بعض الحرف أو الصنائع المحتاج إليها فى انتظام حال الجماعة. والنوع الأول يبعث على القيام به القصد إلى امتثال أمر الله- تعالى-، وأما النوع الثانى فقد يبعث عليه داعية فطرية، ذلك لأن همم الناس تختلف فى توجهها إلى ما تستدعيه الحياة من الحرف والصنائع، فيوجد فى أغلب البلاد الحداد والنجار والبناء

والصانع والخائط والحمال والنحاس، إلى غير هذا من الحرف والصنائع الضرورية، ومن المحتمل أن لا تطرد هذه السنة فى بلد أو فى عصر، فيزهد الناس فى حرفة أو فى صناعة، فلم يدع الشارع هذه الضروريات أو الحاجيات إلى الدواعى الفطرية وحدها، بل جعل القيام بكل حرفة أو صناعة يحتاج إليها فى الحياة فرض كفاية، حتى يستقيم أمر الحياة، فإن لم تختلف همم الناس اختلافا يفى بما تحتاج إليه البلاد من الحرف والصنائع، وجب على أولى الشأن العمل لسد حاجات الأمة، وإقامة الحرفة أو الصنعة المفقودة ولو ببعث طائفة إلى خارج البلاد ليتعلموها ويحسنوا القيام عليها.

وقد دلنا التاريخ الصحيح لعهد النبوة أن الناس كانوا يتعاونون على مرافق الحياة ووسائل السعادة، فقد روى الإمام البخارى عن أبى هريرة -رضى الله عنه- أنه قال: «إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق(١) بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل فى أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لشبع بطنه. ويحضر مالا يحضرون، ويحفظ مالا يحفظون».

فدل الحديث على أن طائفة من المهاجرين كانوا يشتغلون بالتجارة، وطائفة من الأنصار كانوا يشتغلون بالفلاحة

---

(١) البيع والشراء

والزراعة، وأن أبا هريرة كان منقطعا لطلب العلم، وعرفنا من طريق غير هذه الرواية أن فى الأمة لذلك العهد طائفة كانت تتعاطى بعض الصنائع كالنجارة والحدادة.

ولم يكن أهل الصفة(١) إلا بمنزلة الجند المهيأ للدفاع، زيادة على ما كانوا يتلقونه من علم، فلهم من هذه الناحية قسط عظيم من التعاون المطلوب فى قوله - تعالى- :

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾

ويجرى على شاكلة الحرف والصنائع العلوم والفنون، فقد قرر علماء الشريعة أن كل علم أوفن يحتاج إليه فى الحياة يجب أن تقوم به طائفة من الأمة، فمن التعاون على تنمية العلوم وتحقيقها إقبال كل طائفة على علم يقتلونه بحثا، ويحيطون به من كل جانب، وإنما اتسعت دوائر العلوم بمثل هذا العمل المسمى بالتخصص.

وقد أدرك علماء الإسلام فى القديم فائدة انفراد كل طائفة بعلم تفرغ فيه جهودها، وتصرف فيه جانبا كبيرا من أوقاتها. فاختلفت وجهاتهم على قدر ما كان بين أيديهم من العلوم، وظهر النبوغ فى هذه العلوم على اختلاف موضوعاتها وتباعد أغراضها.

---

(١) موضع مظلل فى مسجد المدينة يأوى إليه المساكين

وقد يكون اختلاف الناس فى إتقان هذه العلوم من دواعى الفطرة، بأن يقبل كل إنسان على العلم الذى يجد فى نفسه الميل إلى تعاطيه، فإن وجد الرئيس همم الناس منصرفة عن بعض العلوم، اتخذ الوسيلة إلى حمل طائفة منهم على مزاولته.

وأما أن الشريعة بنت كثيرا من أحكامها وآدابها على قاعدة التعاون فشواهده كثيرة، تجد هذه الشواهد فى التعاون على حفظ الدين والنفس والعرض والعقل والنسل والمال.

من شواهد التعاون على حفظ الدين، أن الشريعة نظرت إلى ما يبنى على التفقه فى الدين من إنارة الجاهلين، وإنذار المسرفين، وتنظيم الحياة على وجه أدعى الى الارتياح والاطمئنان، فلم تتركه لهمم الأفراد التى قد يطرأ عليها ضعف أو انصراف عن التعلم، بل فرضت على كل فرقة من المسلمين أن يرحل منها طائفة إلى المواضع التى يمكنهم أن يتفقهوا بها فى الدين ثم يعودوا إلى قومهم، فتبقى عقائد الدين وواجباته وآدابه محفوظة بينهم.

قررت رحلة طائفة للتفقه فى الدين، وفيه معنى التعاون على حفظه، وورد فى الشريعة الأمر بالتعاون على حفظ الدين من وجه آخر، وهو أن رجال القبيلة أو القرية قد يغفلون عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فتضيع أحكام الدين وآدابه، ففرضت على الأمة أن يقوم طائفة منها بالدعوة إلى الحق

والإصلاح، والتحذير من الباطل والفساد، قال -تعالى-:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾(١)

وقد تختلف وجوه التعاون على حفظ الدين باختلاف الأحوال والأزمان، ومما حدث فى هذا العصر أن بعض المخالفين يعملون لزلزلة أركانه وطمس معالمه، بوسيلة ما يفتحونه من مدارس ومستشفيات وملاجئ يزعمون أنهم يخدمون بها العلم والإنسانية، فهنالك يجدون الأطفال والمستضعفين من الرجال والنساء واقعين فى حبائلهم لا شاهد عليهم ولا رقيب، فيحدثونهم عن الإسلام بألسنة تفترى عليه الكذب ويلقنونهم آراء تجعلهم من أشد الناس عداوة لدينهم وازدراء لآبائهم، فمن التعاون على الدين فى العصر أن ينهض المسلمون نهضة صادقة، فيبسطوا أيديهم بالبذل فى سبيل إنشاء مدارس ومستشفيات وملاجئ تغنى عن تلك المبانى المفتوحة لإغواء الغافلين. ومن التعاون على حفظ الدين أن ينشط العلماء للإرشاد فيطلقوا ألسنتهم وأقلامهم فى نصح من فى قلوبهم بقية من خير، بأن لا يرسلوا أبناءهم إلى تلك المدارس التى لو غفل عنها الناس اليوم غفلتهم عنها بالأمس لطوى بساط الدين طى السجل للكتاب.

---

(١) آل عمران (١٠٤)

ومن شواهد التعاون على حفظ النفوس أن الشريعة قد نظرت إلى ما يحدث بين الطوائف من التنازع فالتقاتل، فأشفقت من أن تذهب نفوس بريئة، وتراق دماء كثيرة، فأمرت الباقين من المسلمين بالسعى للصلح بين الطائفتين المتقاتلتين.

ومن هذا القبيل فرض إغاثة العطشان والجائع، حتى قال الفقهاء: من لقى عطشانا ومعه ماء، أو لقى جائعا ومعه طعام، فمنع العطشان الماء أو الجائع الطعام، وهو يعلم أنه لا يجوز له منعه، وأنه يموت إن لم يسعده بما عنده، حقت عليه عقوبة القصاص.

دعت الشريعة إلى التعاون على حفظ النفوس، وجعلت له من الزكاة النصيب الأوفى، فكان من مصارفها الفقراء والمساكين، ليسدوا بها حاجاتهم، ويصونوا بها ماء وجوههم، ثم ندبت إلى وجوه أخرى من وجوه البر كالصدقة والهبة، فالقصد من الصدقة أو الهبة مواساة من يتصدق عليه أو يوهب له، وإعانته على حفظ نفسه أو نفس من يعوله، غالبا.

وفى الناس من لا تسمح نفسه برفع يده عن الشئ المنتفع به جملة، فجعل له الشارع طريقا إلى أن يعين غيره بمنفعة الشئ مع بقاء ذاته تحت ملكه، كالعارية والعمرى (١). ومن الوجوه الراجحة فى تفسير قوله -تعالى-: ﴿ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴾(٢)

---

(١) أن تعطى شخصا منفعة شئ مدة حياته أو حياتك أو إلى أجل مسمى.

(٢) الماعون (٧)

أن المراد ما يتعاوره الناس من متاع البيت كالقدر والجفنة والسكين، وإذا طلب منك إعارة أمثال هذه الأدوات فى حال ضرورة كان منعها حراما، فإن طلب منك أعارتها فى حال لا تبلغ حال الضرورة، كان منعها خادشا فى المروءة، دليلا على أنك تطوى نفسك على شئ من البخل بما آتاك الله من خير.

ومن شواهد التعاون على حفظ العرض، أن الشريعة قد وضعت على القذف بالزنا عقوبة محددة، وعلى من يتناول غيره بسباب أو هجاء، التعزير بما يكفى لردعه، وعهدت بإجراء ذلك الجزاء إلى الرئيس الأعلى أو من يقوم مقامه، وفى إجراء ذلك الجزاء تعاون على حفظ الأعراض. والقاضى الذى لا يحقق النظر فى قضايا السباب والهجاء ولا يقرر لها جزاء وفاقا، يعد فيمن لا يقدر حق صيانة الأعراض، ويلحق بمن يجهل أن العرض أعز على الرجل من ماله ونفسه.

ومن مقتضى التعاون على حفظ الأعراض أن لا تترك مجلسك ميدانا يتسابق فيه الطغام إلى ثلب الأعراض، فإذا حرك أحد لسانه بالقدح فى عرض برئ أو بريئة، ألجمته بالحكمة.. وكذلك يفعل الصالحون والمصلحون، قال صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يخذل امرأ مسلما فى موضع ينتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله فى موضع يحب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر مسلما فى موضع

ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه حرمته إلا نصره الله فى موضع يحب نصرته[1]». وقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: « من ذب عن عرض أخيه رد الله النار عن وجهه يوم القيامة[2]».

ومن شواهد التعاون على حفظ العقل أن الشريعة وضعت عقوبة على من يتناول شيئا من المسكرات، أو يؤذى شخصا فيزيل عقله، وعقوبة الأول معروفة، وعقوبة الثانى الدية كاملة، وهذه العقوبات يجريها القائمون على المصالح العامة، وإجراؤها من قبيل التعاون على حفظ العقول.

ومن مقتضى التعاون أن تحول بين الإنسان وما يذهب بقوته العاقلة أو يضعفها ما استطعت أن تحول، فإن كان لك السلطان منعته بيدك الغالبة، وإن كنت مرشدا منعته بموعظتك الحسنة،. ونصح الطبيب فى معالجة من تصاب عقولهم بشئ من الخلل داخل فى قبيل هذا التعاون المطلوب.

ومن شواهد التعاون على حفظ النسل أن الشريعة رغبت فى النكاح وجعلت من شروط صحته الإشهاد، فمن حضر ليشهد به فقد أخذ بأدب التعاون على حفظ النسل، ومن الآخذين بهذا الأدب المحمود الخاطب، ومن يشفع لدى الزوجة أو وليها فى

---

(١) أبو داود (٢) الترمذى

تخفيف نفقات العرس، أو الرضا بالميسور من المهر.

ومتى ظهر فى الناس قلة الإقبال على الزواج، وجب على حكماء الأمة والقائمين على مصالحها أن يتعاونوا فى البحث عن علل قلة الزواج، ويتخذوا الوسائل إلى علاج هذه العلل، حتى تعود الأمة إلى الفطرة السليمة، وتسير فى طهر، وينمو عددها نماء يكفل حياتها، ويكسبها قوة على القيام بنفسها.

ومن شواهد التعاون على حفظ المال بحمايته من التلف أو العمل على نمائه، أن الشارع قرر الإيصاء، وهو أن يعهد الأب لمن يعرف فيه الأمانة وجودة الرأى بالنظر فى شئون ابنه من بعده، ومن مقتضيات الإيصاء حفظ مال الطفل والتصرف فيه على ما تقتضيه المصلحة، فقيام الوصى على أمر الطفل بحزم ونصح معونة على حفظ ماله وإصلاح حاله.

ومن هذا الباب تقرير الشارع لباب القراض، وهو إعطاء مال لمن يتجر به على أن له جزءًا من ربحه، فصاحب المال يعين العامل على كسب جزء من المال كانت يده فارغة منه، والعامل يعين صاحب المال على تنمية ماله، ولولا إعانة هذا العامل لبقى المال عند حد، وقد ينقصه الإنفاق حتى يذهب به جملة.

ومن هذا القبيل فتح الشارع لباب عقد الشركات فى الأموال، وهى خلط شخص ماله بمال آخر على أن يتصرف كل منهما فى المالين فى حال حضرة شريكه وغيبته، أو فى حال حضرته فقط.

وفى هذا النوع من التعاون فائدة عظمى لا توجد عند عمل كل واحد فى ماله منفردا، فإن ضم القليل إلى القليل يصير كثيرا، وهذه الكثرة تجعل الشركاء قادرين على جلب بضائع مرتفعة القيم، أو مختلفة الأجناس والأصناف، ولولا الشركة لضاق باع كل منهم أن يصل إلى تلك البضائع ذات القيم المرتفعة، أو ذات الأجناس أو الأصناف المختلفة، فتقل الأرباح ولا يجد أهل البلد على تفاوت طبقاتهم كل ما يقوم بحاجاتهم ويوافق رغباتهم، ونجاح الشركات قائم على تحقق الأمانة والسير على نظم علم الاقتصاد الصحيح، فمن الملائم لروح التعاون فى الإسلام تأليف شركات تحتفظ بعهد الأمانة، وتسير على نظم يراعى فيها قواعد الاقتصاد المعقولة وتسعها أصول الشريعة الغراء.

والتعاون بالنظر إلى ما تقع به المعونة إما أن يكون تعاونا بالنفس، كأن تدفع بيدك أو سلاحك صائلا على نفس أو مال، وإما يكون تعاونا بالمال، كالقرض والهبة والصدقة وضرب الدية فى القتل الخطأ على العاقلة، وإما يكون تعاونا بالرأى كأن تشير على الرجل بما يخرجه من حيرة أو ينقذه من عطب، وإما أن يكون تعاونا بالجاه، كأن تشفع لذى الحاجة عند من يملك قضاءها، قال -صلى الله عليه وسلم-: «اشفعوا تؤجروا (١)».

---

(١) النسائى

وقال- عليه السلام-: «والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه (١)».

وتتفاوت همم الناس فى مصارف الجاه، وأصغرهم همه من يستخدمه فى منافعه الخاصة، ولا يوجهه إلى قضاء المصالح العامة، وقد دلنا التاريخ على أن كثيرا من زعماء الإسلام وعلمائه يدوسون منافعهم الخاصة بأقدامهم وإذا وجدوا موضعا لنفوذ الكلمة لم يذكروا إلا مصلحة عامة أو مصالح أشخاص يبتغون من السعى لها رضا الله فى الدنيا والآخرة.

وخلاصة المقال: إن الإسلام أقام التعاون على أساس محكم، ومد له فى كل ناحية من نواحى الحياة بسبب، فإذا وضع المسلمون أيديهم على هذه الأسباب الوثيقة، بلغت بهم المكانة المحفوفة بالعزة، المشار اليها بقوله -تعالى-:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢).

---

(١) صحيح مسلم

(٢) المنافقون (٨)

http://albordj.blogspot.com

النبوغ في العلوم والفنون

فى الناس من يجمع علما غزيرا، أو يروى أدبا واسعا، وقد يؤلف فتعدّ مؤلفاته بالمئات أو آلاف من الصفحات، ولكنا لا نجد فيما ألف من مئات الصفحات وآلافها شيئا زائدا عما كتبه الناس من قبله، ويسوغ لنا أن نسمى هذا العالم أو الأديب «حافظا» أو «ناقلا».

أما العالم أو الأديب الذى يدرس فنسمع منه مالم نكن قد سمعنا، ويؤلف فنقرأ له ما لم نكن قد قرأنا، فذلك ما يحق لنا أن نسميه نابغة أو عبقريا.

فالنابغة أو العبقرى هو الذى يحدث علما أو فنا من فنون الأدب لم يكن شيئا مذكورا، كما صنع الخليل بن أحمد فى علم مقاييس الشعر، أو ينقله من قلة إلى كثرة، كما صنع عبدالقاهر الجرجانى فى علم البلاغة، ودون هذه الدرجة درجات وسموّ كعب العالم أو الأديب فى العبقرية على قدر ما يأتى به من أفكار مبتكرة، أو ما يستطيعه من حل المسائل المعضلة.

أما ابتداع الرجل للعلم أساليب تجعل مأخذه أقرب وتناوله أيسر، فليس بنبوغ فى نفس العلم، وإنما هو نبوغ فى صناعة التأليف فيه.

وإذا كانت العصور قد تبسط يدها بالعلماء الناقلين كل البسط، فإنها لا تسمح بالعبقرى إلا قليلا.

فتية لم تلد سواها المعالى

والمعالى قليلة الأولاد

تقوم العبقرية على الذكاء والجد فى طلب العلم، ثم على كبر الهمة، فمن لم يكن ذكيا لم يكن حظه من العلم إلا أن يحفظ ما أنتجته قرائح العلماء من قبله، ومن لم يجدّ فى طلب العلم، ولم يغذّ ذكاءه بثمرات القرائح المبدعة، بقى ذكاؤه مقصورا فى دائرة ضيقة، فلا يقو على أن يحلق فى سماء العلوم، ليبلغ الغاية السامية، وماذا تصنع المرأة الكيسة فى بيت لامؤونة فيه ولا متاع؟ يقولون: إن ابن سينا لم ينم مدة اشتغاله بالعلم ليلة واحدة كاملة، ولا اشتغل فى النهار بسوى المطالعة وقالوا: لم يترك ابن رشد النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه، أو ليلة بنائه على أهله.

ومن لم تكن همته فى العلم كبيرة، لم يكفه ذكاؤه ولا جده فى الطلب لأن يكون عبقريا، فقد يكون الرجل ذكيا مُجدا فى التحصيل، وصغر همته يحجم به أن يوجه ذكاءه إلى نقد أراء قديمة، أو ابتكار أراء جديدة حميدة :

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

والعبقرى يلذ العلم أكثر ما يلذه الناقلون، وإنا لنرى الرجل يرتاح للعلم ينحدر من سماء فكره أكثر مما يرتاح للعلم الذى ينساق إليه من فكر غيره، ولا يزيد هو على أن يودعه حافظته، قال تقى الدين السبكى فى أبيات أجاب فيها عن سؤال يتعلق بآية من الكتاب المجيد:

لأسرار آيات الكتاب مَعان

تدق فلا تبدو لكل معان

إذا بارق قد لاح منها لخاطرى

هممت قرير العين بالطيران

ولشدة ارتياح النابغة لاستخراج المعانى من معادنها، وتخليص الآراء الراجحة من بين الآراء الواهية، نجده أحرص الناس على العلم، وأشدهم أنسا به، وأثبتهم على الانقطاع له.

مهيئات النبوغ:

للنبوع مهيئات، منها أن ينشأ الذكى فى درس أستاذ يطلق له العنان فى البحث ويرده إلى الصواب برفق، ويثنى عليه إن ناقش فأصاب المرمى. نقرأ فى ترجمة العلامة إبراهيم بن فتوح الأندلسى أنه كان يفسح لصاحب البحث مجالا رحبا، بل يطلب

من التلاميذ أن يناقشوه فيما يقرر ويحثهم على ذلك، ويختار طريق التعليم به، وشأن العالم العبقرى أن يقبل على التلميذ المتقد ذكاء ويأخذ بيده فى طريق التحصيل حتى يعرف كيف يكون عبقريا.

ومن مهيئات النبوغ أن يشب الألمعى بين قوم يقدرون النوابغ قدرهم، فإنّ نظر القوم إلى النابغة بعين التجلة، وإقبالهم عليه باحتفاء، مما يزيد الناشئين الأذكياء قوة على الجد فى الطلب، والسعى إلى أقصى درجات الكمال.

ولا عجب أن يظهر النابغون فى العلم والأدب ببلاد الأندلس، فقد كان أهلها كما قال صاحب نفح الطيب: «يعظمون من عظمه علمه، ويرفعون من رفعه أدبه، وكذلك سيرتهم فى رجال الحرب:يقدمون من قدمته شجاعته، وعظمت فى الحروب مكايده».

وظهر فى عالم الإسلام خلفاء وملوك ووزراء، كانوا يقدرون النوابغ ويحتفون بهم لنبوغهم، مثل المأمون العباسى، وعبدالله بن طاهر، وسيف الدولة، والصاحب بن عباد، فى الشرق، وعبد الرحمن الناصر، والمنصور بن أبى عامر، والمعتمد بن عباد، فى الأندلس. وأسوق مثلا لهذا التقدير أن القاسم بن سلام عرض على عبدالله بن طاهر تأليفه فى غريب الحديث فقال عبدالله: إن عقلا بعث صاحبه على عمل هذا الكتاب، حقيق بأن لا يحوج

إلى طلب المعاش. وأجرى عليه عشرة آلاف درهم فى الشهر.وقد يهيئ الناشئ للنبوغ أن يسبقه أب أو جد بالنبوغ، فإن كثرة تردد اسم سلفه العبقرى على سمعه، ومطالعته لبعض آثار عبقريته يثيران همته، ويرهفان عزمه لأن يظفر بما ظفر به سلفه من منزلة شامخة، وذكر مجيد.

وإذا رأينا كثيرا من أبناء فطاحل العلماء، لم يتجاوزوا مرتبة العلماء الناقلين، فلنقص فى ذكائهم الفطرى، أو لعلل نفسية صرفتهم إلى نواح غير ناحية العبقرية.

ومن مهيئات النبوغ نشأة الذكى فى حاضرة زاخرة بالعلوم والآداب إذ فى الحواضر يلاقى الناشىء جهابذة العلماء، وأعلام الأدباء. وفى الحواضر يشتد التنافس فى العلوم والفنون، ويتسع مجال المحاورات والمناظرات.

ومن مهيئات النبوغ قراءة مؤلفات النابغين فى العلم بعد الاطلاع على كتب غيرهم، فلا يرجى من ناشئ النبوغ فى علم متى وقف عند دراسة الكتب التى تسوق المسائل مجردة من أدلتها غير معنية بالغوص على أسرارها، وإنما يرجى منه النبوغ متى وضعت تحت نظره كتب يرى مؤلفوها كيف يستمدون أراءهم من الأصول العالية ولا يوردون مسألة إلا بعد أن يعززوها بالدليل.

ومن مهيئات النبوغ مطالعة تراجم النابغين المحررة بأقلام تشرح نواحي نبوغهم. وتصف آثاره، نحو مؤلفاتهم المنقطعة النظير، ثم ما يخصه بهم عظماء الرجال من تقدير وتمجيد.

ومن مهيئات النبوغ الرحلة والتقلب في كثير من البلاد، ولا سيما بلادا تختلف بعاداتها وأساليب تربيتها ومناهج حياتها العلمية والسياسية ولعل نبوغ ابن خلدون في شئون الاجتماع ذلك النبوغ الرائع، إنما جاءه من نشأته في تونس، ثم سياحته في بلاد الجزائر والمغرب الأقصى. الأندلس، ثم مصر، سياحة اعتبار، سياحة اتصل فيها برؤسا حكوماتها وأكابر علمائها، بل سياحة كان يقبض فيها أحيانا على طرف من سياسة تلك البلاد.

تقدير النبوغ:

يعرف الناس أن زيدا عالم أو أديب، أما بلوغه مرتبة النبوغ في علم أو فن من فنون الأدب، فإنما يعرفه من درسوا ذلك العلم أو الفن دراسة تمكنهم من الحكم بأن ما يثمره فكر هذا العالم أو الأديب جديد بديع.

فمن لم يدرس علم الطب مثلا لا يستطيع أن يصف أحدا بالنبوغ فيه إلا أن يقلد في وصفه بعض كبار الأطباء، ومن لم يدرس علوم اللغة ليس من شأنه أن يشهد لأحد بالنبوغ في

هذه العلوم إلا أن يتلقى تلك الشهادة من أفواه أساتذة اللغة وآدابها، وأعد من تعقل ابن حزم، أنه كتب رسالة بين فيها كيف أبدع أهل الأندلس فيما ألفوه فى العلوم والفنون، ولما وصل إلى علم الحساب والهندسة، قال: «وأما العدد (الحساب) والهندسة فلم يقسم لنا فى هذا العلم نفاذ، ولا تحققنا به، فلسنا نثق بأنفسنا فى تميز المحسن من المقصر فى المؤلفين فيه من أهل بلدنا».

وإذا انتشر العلم والأدب فى بلد أو قطر، كان أهله أعرف بأقدار النبغاء، وربما عاش العبقرى فى بلد ويكون ذكره فى بلد آخر، أذيع، وشأنه فيه أعلى، نشأ العلامة أبو عبدالله التلمسانى في تلمسان، وعاش بها، ويقول الكاتبون فى التعريف به:«وكان علماء الأندلس أعرف الناس بقدره، وأكثرهم تعظيما له».

وأشار إلى هذا المعنى بعض من نشأ أو أقام بين قوم لم يقدروا فضل براعته، فقال:

وما أنا إلا المسك فى غير أرضكم
يضوع وأما عندكم فيضيع

أثر النبوغ فى العلم:

عرفنا أن العلماء النقالين مزيتهم فى حفظ أقوال من تقدمهم، وليس من شأنهم أن يتقدموا بالعلوم ولو خطوة، وإنما الذى

يبتكر العلوم، أو تكون له يد فى تلاحق مسائلها قليلا أو كثيراً هو العبقرى.

ولا يستغنى علم من العلوم عن عبقرى يضيف إليه مسائل، أو يحل منه مشاكل، أو يجد تطبيق أصوله العالية على فروعها.

فعبقرية الأئمة المجتهدين أورثتنا هذه الثروة العظيمة من أصول الشريعة وأحكامها العائدة إلى حفظ الدين والأنفس والأعراض والأموال وعبقرية علماء الكلام دخلت في تفاصيل الإلهيات والنبوات، فخلصت الحقائق من الأوهام، وحفظت أصول الدين من أن تزلزلها عواصف الشبهات. وعبقرية المناطقة استنبطت هذه القوانين التى تساعد العقل السليم على أن تكون آراؤه صائبة، وحججه ساطعة. وعبقرية علماء العربية جعلت مقاييس اللغة ومحاسن بيانها فى متناول نشئنا يجرون عليها فى خطبهم وأشعارهم فيسترعون الأسماع، ويأخذون بالألباب.

وهكذا ننظر إلى كل فن من الفنون التى تقوم عليها المدنية الفاضلة الرائعة، فنجده وليد العبقرية التى تخرق القشر وتنفذ إلى اللباب. فحاجة العلم إلى العبقرى لا يقضيها الجماعات التى تقنع بالحفظ وإن كثروا، ومما ينبه لهذا المعنى قول محمد بن عيسى القوصى يرثى العلامة ابن دقيق العيد:

لو كان يقبل فيك حتفك فدية
لفديت من علمائنا بألوف

أثر النبوغ فى شرف الأمة:

للنبوغ فى عظمة الأمة حظ كبير، لذلك نرى الشعوب والقبائل يباهى بعضها بعضا بالنابغين فى علم أو أدب أو سياسة، وانظروا إلى رسالة كتبها أبوالوليد الشقندى فى فضل الأندلس على بر العدوة، وقد ملأها بقوله يخاطب أهل العدوة: هل لكم فى علم كذا مثل فلان وفلان؟ وذكر البارعين فى الفقه والنحو والأدب والشعر والتاريخ والهندسة.

ولابن حزم رسالة نوه فيها بفضل الأندلس، فذكر طائفة من جهابذة تلك البلاد: يقيسهم ببعض علماء الشرق وأدبائه، فيقول مثلا: فلان نباهى به جريرا أو الفرزدق، وفلان نسابق به محمد بن اسماعيل البخارى، وفلان نناطح به محمد بن الحكم، وفلان وفلان لم يقصرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد.

أثر النبوغ فى علو الهمة:

أشرنا إلى أن النبوغ يقوم على كبر الهمة فى العلم، ونقول الآن: إن النبوغ ينحو بصاحبه نحو عزة النفس ويرفع همته عن أن تسلك طريق الملق والخضوع لإ دراك نحو منصب أو مال: فإن شعور العبقرى برفعة منزلته العلمية، يريه أن كل ما عدا هذه المنزلة أهون من أن تطمح إليه النفوس أو تحرص عليه، وقد نال ابن حزم الوزارة، ولما رأى العلم فوق كل مرتبة انصرفت

نفسه عنها، وطلقها بتاتا من تلقاء نفسه، وانقطع للبحث والتحرير.

كيف نصعد بأبنائنا فى مراقى النبوغ:

تختلف نفوس الناشئين فى الميل إلى العلوم، كل نفس تميل إلى ما يوافق طبعها، فنرى نفساً تختار علماً، ونفساً تختار علماً غيره، ولندع الفلسفة تبحث عن سر موافقة هذا العلم لطبع هذه النفس، ونكتفى بأن نعلم أن هذه النفس تميل إلى العلم، لنتوجه بها إلى التخصص به، فتطلبه برغبة زائدة على رغبتها فيه من حيث إنه علم، وقد أدرك هذا علماؤنا من قبل، فنقرأ فى التعريف بحياة العلامة أبى عبدالله التلمسانى أنه كان يترك كل طالب يتخصص بالعلم الذى تميل إليه نفسه.

ومناهج التعليم اليوم تقتضى تخصص كل طائفة بقسم من العلوم، ولا يكفى توجه الطالب إلى التخصص بقسم من العلوم لأن يكون نابغا فيه، وما فتح أبواب التخصص إلا أحد المهيئات للنبوغ، وقد تفوت الطالب القريحة الوقادة والألمعية المهذبة، أو تفوته الهمة التى تطمح به إلى بلوغ الذروة فى العلم، فعلى القائمين على شئون التعليم العام أن لا يكتفوا بأن تخرج أقسام التخصص فى كل عام فرقا يؤدون الامتحان، ويحرزون شهادات تخولهم ولاية بعض المناصب، بل واجبهم أن يوجهوا

عنايتهم إلى ذوى الذكاء المتقد وإن كانوا من أبناء البيوت الخاملة ويربون فيهم الهمة الطامحة إلى أسمى الغايات، ويقوون عزائمهم بكل وسيلة ممكنة، حتى يسيروا فى طريق العبقرية، فإن سلامة الأمة وسيادتها، على قدر ما تخرجه معاهدها وجامعاتها من أساتذة أجلاء، أساتذة لا يتركون فى العلم الذى يتخصصون به غامضاً إلا استكشفوه، ولا بابا من أبوابه إلا نفذوا منه.

• • •

http://albordj.blogspot.com

00465(8

الفهـــــرس

الموضـــوع **الصفحة**

- ● العلماء والإصلاح ٤
- ● أصول سعادة الأمة ١٣
- ● كبر الهمة فى العلم ٢١
- ● الانحراف عن الدين .. علله آثاره دواؤه ٣١
- ● سماحة الإسلام فى معاملة غير المسلمين ٤٠
- ● التعاون فى الإسلام ٥٢
- ● النبوغ فى العلوم والفنون ٦٩

[illegible] الإسلامية [illegible]

46508
ح س ي/210.2

46508
ح س ي/2

شركة الاعلانات الشرقية - م دار «الجمهورية» للصحافة

http://albordj.blogspot.com